

تاريخ

حياة طيب الذكر

الامير

علي بن الامير عبد القادر ملك الاقطاع المغربية وسلطان الارباض الجزائرية

وضعه نخبة من افاضل الكتاب

تحت رعاية نجل الفقيد الاكبر الامير محمد سعيد

طبع

في مطبعة الترقي في دمشق عام ١٩١٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام عَلَى سيدنا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم و (بعد) فان اعاظم الرجال في كل امة من الامم هم نبراس مضيء يهتدي به الذين يعتسفون في هذه البادية العظيمة التي نسميها الحياة. حياة كبار الرجال هي قدوة صالحة للذين يأتون فيما بعد ولقد كان التاريخ اكبر مؤثر على اخلاق الامم لانه مثل حالة الاسلاف تمثيلاً واضحاً وخلد مآثرهم بصورة مؤبدة والامة التي لا تتمسك بما تمسك به رجالها الاقدمون ولا تقتدي بما عمله العاملون امة اولى بها ان تتدرج الى هوة الفناء العظيمة العمق والشديدة الظلام

ان الرجال العظام هم كانبياء صغار ورسل شريعتهم المسامحة والاحسان وكبر الاعمال والاعتدال في كل امورهم والانصراف الى ماهو مفيد ونافع للمجموع الذي نعيش في ظله الظليل وما من امة شذت عن مسلك

رجالها او جنحت الى غير اعمالهم او سلكت سبيلاً غير السبيل الذي سلكوه الا ونالها من التدني والتدهور مايقضي علَى كيانها القضاء المبرم وما من امة عرفت اقدار افرادها وحذت حذوهم في سيرها وقلدتهم في اعمالهم اتم تقليد الا واحرزت مكاناً قصياً وتبوأت مركزاً عليا

فتاريخ الرجال العظام درس عظيم باقٍ علَى اسماع الامم بصورة لها وقع موثر وصدى كالجرجرة تتسرب الى المشاعر فتثيرها وتذكي فيها ضرام الاحساس للمسارعة الى محاكاتهم في كل ماعملوه وما ادركوه وما اتبعوه من المبادئ وجميل الغايات وما سلكوه من الطرق السليمة والمناهج القويمة ٠

ولقد رأينا المؤرخين لايكتفون فقط بسرد الوقائع الحربية والمعارك الدامية التي تمثل ادوارها الرجال العظام بل رأيناهم يتعدونها الى وصف مناقبهم الحميدة واخلاقهم الشريفة وعاداتهم النبيلة واقوالهم المؤثرة وخطبهم وآثارهم الجليلة لان ذكر الوقائع الحربية يحمل في النفس تأثيراً موقوتاً لايلبث ان يزول اما الاقوال والمناقب والاخلاق والعادات فانها تظل راسخة في النفوس رسوخاً ابدياً

هذا نابوليون بونابارت اجتاح الممالك وخضد شوكة الشعوب وبسط جناحي نسره العظيم من باريس الى مادريد وهبط علَى رومية بعد ان استظهر في اوسترليتز ووغرام ومارنكو على جيوش النمسا فما اثرت

هذه الوقائع الجليلة في النفوس مثلما اثرت خطبه واعماله العمرانية وخططه التي وسعت سبل الحياة الصافية لشعبه وامته

وهاك هيجو فانه فيما صنفه والفه سواء كان منثوراً او منظوماً قد ادرك المبتغى ولا يزال ذكره حياً ولا يبرح اسمه يردده الصدى في انحاء المعمور وافند صوره معاصروه وكتبوا عنه الكتب الكثيرة التي اعلت منزلتـه وجعلته في مصاف لايتعداه غيره واذا أردنا ان نذكر سـواه من الاعاظم الذين كتبت سيرهم احتجنا الى مجلدات ضخمة وما نحن بتمام الاسهاب وكل مانتوخاه هو تقرير الحقائق واثبات الواقع

ان التاريخ كما قلنا هو الذي يحبب الاتين بالسالفين وهو الذي يجعل النوابغ مكرمين معبودين منزهين عن كل وضر او ما يشين وحب الرجال الكبار واجلالهم وتقديسهم وتكريم عقولهم شيء طبيعي يجول في النفوس ولاتشعر هذه النفوس باجمل من هـذه العاطفة الكريمة التي هي تقديس البطولة والذكاء

فصلاح الدين الايوبي وريكاردوس قلب الاسد علَى اختلاف اخلاقهما يألفهما الجميع و يحبهما العدد الاوفر من سكان بادية الحياة لشهرتهما بالشجاعة وتفردهما بالمزايا الصالحة والعادات المستحبة

وهذا الحب او بعبارة اصرح هذا التبجيل لم يكونه غير تاريخ الوقائع والافعال التي صورها المؤرخون للشعوب المتأخرة فكتابة التاريخ كما

تقدم امر حيوي لانه يفهمنا حقيقة العبادة التي يجب علينا حفظها
لرجالنا النوابغ وهنا حقيقة غامضة لاتفهمها بعض الارواح الضعيفة في
اعتقادها فان تاريخ نوابغ الرجال لايدلنا فقط على انهم عملوا اعمالاً خارقة
بل انه درس وطني رائع

هذا الدرس المذهب المستحب يفهمنا حقيقة الواجب الذي سنقوم بالقيام
به فان الدماء التي اراقها رجالنا والوقائع التي خاضوا غمارها والاقوال التي
نطقوا بها والارادة القوية التي تمسكوا بها انما هي كلها من اجل حفظ هذا
التراب المقدس الذي نسميه الوطن

فالارض التي نعيش فيها هي وطننا والدماء التي سفحها رجال تاريخنا هي
مياه سقت ترب ذلك الوطن العزيز الذي ولدنا فيه والذي سندفن في
بقاعه الطيبة .

وان علينا واجباً كبيراً هو شخوصنا الى نقطة واحدة تنحصر في تكريم
الرجال الكبار حتى يظل ذكرهم حياً في ذكرة الاحفاد وحتى يقتدي باعمالهم
الخلف الاتي واننا في هذا الكتاب نتلو في الناس سيرة رجل كافح
الكفاح الشديد وناضل النضال الهائل في سبيل مبدأه ، هذا الرجل هو
المرحوم الامير علي الجزائري النجل السابع للامير عبد القادر الشهير
ملك الاقطاع المغربية وسلطان الارباض الجزائرية .

واحرى بالامة واولى ان تنظر اليه نظر التقديس فقد كان اولى بحبها

وعطفها وحنانها وقد كان باراً بها شفوقاً عليها لا تأخذه في خدمتها لومة لائم .

ان تاريخ هذا الرجل السامي الذي حارب من اجل الحق في كل ادوار حياته سيظل شهاباً شاعلا مرسلاً من قبل الله لاحراق الذين عكفوا على الانزواء في مجاهل الحسد المظلمة وسيعتقد به الذين لم يعتقدوا به من قبل وسيضطر الى تمجيده الذين كبرت همومهم واتسعت فرجة احزانهم من نبوغه وذكائه واتقاد جنانه وهؤلاء كما قال الكاتب الانكليزي كارليل لن يستطيعوا مهما حاولوا ان يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هي اجلال العظماء فطرية في طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن واجلال العظماء باق ما بقي الانسان .

ان الامة الفرنسوية تؤمن وتظهر عبادتها الابطال في اغرب صورة وقد كان فولتير يدخل باريس عائداً من رحلة طويلة شيخا فانياً مهدماً قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون انه نوع من الابطال امضى حياته في محاربة الضلال والظلم وكشف امور المنافقين من ارباب المناصب . انه بالاختصار من جاهد جهاد الابطال وان لم يسلك في ذلك الا خطة غريبة نعم يحسون انه اذا كان الاستهزاء هو اكبر الامور ففولتير اذن هو اكبر الناس ، هو العظيم الذي يقفون اثره و يتطلبون منزلته فهو في الحقيقة معبودهم الذي لا يصلح الالم ولا يصلحون الا له ولذلك عبدته فرنسا من ماري انتوانيت الى الحارس الذي على باب سان دنيس ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف

أو فاضل او جميل الا كان يعتقد ان فولتر اشرف وافضل واجمل ٠

هذا ملخص ماذكره كارليل أكتب كتاب الانكليز عن عبادة الفرنسويين لفولتر الجاحد المارق الذي كانت حياته نقيض حياة المسيح عليه السلام حياة الهدو والسكينة حياة الفضيلة والمسامحة فاذا كانت عبادتهم على هذه الصورة لرجل مثل فولتر فكيف تكون واجبات حبنا بازاء رجل مثل الامير الكريم الذي جاهد في سبيل الحق والانسانية جهاداً اورثه الالم والعذاب لاشك اننا سنجله مكاناً علياً في قلوبنا واننا سنذكره باحترام في ماتخطره وفيمانكتبه واننا سنجعله مثالاً الارادة الثابتة وللوطنية الحقة وللاسلامية الخالدة ٠

ولادة الامير

كان مولد صاحب الترجمة في دمشق عام ١٢٧٦ فقرت به عينا ابيه المرحوم ساكن الجنان السلطان عبد القادر فأسماه علياً تيمناً وتبركاً باسم امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وغمره بحنانه وعطفه واحتاطه بحبه ولطفه وشخص الي السهر عليه ليشربه من مباديه اقومها وليرضعه من اخلاقه احلمها وليكسبه من عاداته اكرمها ولما كانت الحرب الضروس التي دامت سبعة عشر عاماً بين السلطان المشار اليه والفرنسويين قد وضعت اوزارها وخبا نارها وخمد شرارها كان السلطان قدس الله سره قد اخلد الي ظلال الامن والدعة تحت وريف الافنان والاغراس في

دمشق البديعة الساحرة وامام ضفاف الانهار ذات المياه المسجدية الصافية فلم يعقه عائق او يشغله شاغل عن تثقيف هذا المولود الامين الذي اهتزت بمولده يثرب والبطحاء لانه جاء زهرة فياحة الارج والنشر في روضة سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم واذ بلغ الطفل اشده واستكمل قوته ورشده تطلع ابوه اليه فرآه على ذكاء جم ونبوغ مستبحر فادرك انه منه واليه وان دم الاسد يغلي في عروق شبله وان لبيت الرسول علائم نبوغ تترقرق في وجوههم المشرقة المستنيرة وخيل اليه ان الامل الذي لم يعثر عليه في جهاده المنيف لا يبعد ان يدركه هذا الغلام الحصيف ولقد رأى ان يغرس فيه روحاً دينية بحتة وان يلقنه قبل ان يفهم ما حوله من المشاهد والمرائي مبادئ القرآن القويمة حتى تستنير ذكرته وتضيئ خاطرته بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى

ولقد كان السلطان يعتقد ان ايمان المرء واسطة لاصلاح ماحوله وانه مبعث الحياة ومنبع القوة وان الامم لا تبرح تسلك سبل الفضل وترقى ذرى المجد مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان ولذلك جاء اليه باستاذ حكيم اشتهر بخبرته في التعليم وسهولة التفهيم فشرع هذا في عمله باذلاً جهده في تعليم انجال السلطان جميعهم متخذاً في تعليمهم وتدريبهم طريقة مستحسنة سهلة نشأ عليها اهل المغرب فقد كان يلقي الدرس مرة بعد مرة على اسماع الاطفال فما هي الا برهة وجيزة حتى ترسخ دروسهم في ذاكرتهم رسوخاً عظيماً

وفي مدة قليلة استطاع الامير الصغير ان يلم باسباب القرآن ومعانيه الامر الجلي الذي يدل على حدة ذكائه واشراق خاطره فتضاعف سرور ابيه بهذا النجاح العظيم والفوز الباهر واطلق يده بالاحسان على حفظة القرآن من مرشدي انجاله ومنحهم هباته وعطاياه واغدق عليهم سيول انعامه ولا غرابة فقد كانت عادته اكرام العلماء وتبجيل الادباء واجازة الشعراء واتم الامير دروسه الدينية على الصالح الشيخ احمد افندي الحلواني نور الله مرقده وضريحه ومن ثم اخذ في معالجة الفنون والادب والعلوم فقرأ العربية على الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوي الشهير رحمه الله وكان الورع قد بلغ بهذا الفاضل ان لا يقبل الشكوك والريب وان يعرض عما لا يتفق مع الشريعة الغراء على فقره المدقع وضوب يده واذ كان السلطان لا ينفك يواصل ذوي العلم باحسانه ويغمرهم بفضله وامتنانه جعل له راتباً شهرياً يقوم بمهامه وشؤونه، ودرس الامير الحديث والاصول ايضاً على العالمين الفاضلين الشيخ عبد الرزاق افندي البيطار والشيخ الصوفي سليم افندي سماره واتقن فن الانشاء في اللغتين العربية والتركية على المرحوم الشيخ سليم افندي الترك وكان هذا الفاضل ذا دين وتقوى بلغ في العفة مبلغاً عالياً وكان السلطان رحمه الله يثق به وثوقاً كبيراً ويطمئن اليه حتى بلغ من اعتماده عليه انه اسلمه عظيمات الشؤون واناط به توزيع المعاشات التي خصصها رضي الله عنه لارباب العلم في دمشق

اذ لم تكن لهؤلاء الاعلام ثروة يتكاون على وفرها ولا موارد يعتمدون عليها وكان السلطان ايضاً يواصل ارسال الاموال الطائلة الى الحرمين الشريفين و يحبو باحسانه العدد الاوفر من اهالي تونس والجزائر

وبرع صاحب الترجمة براعة جمة بلغة الترك على وصفي افندي احد افاضل المعلمين

مما ذكر يتضح انه مع حداثته وصغر سنه كان شغفاً بالعلم محباً لاقتباس كل ما هو نافع للبيئة مفيد للمحيط الذي نعيش تحت سماءه وانه نشأ في حجر الشرف والمجد والفروسية والدين فيا ايها النشء يامن تنظر الى حاضرك مرتجفاً مستطلعاً دفائن مستقبلك الغامض ينبغي لك بادي بدء ان تقهر نفسك قهراً وترغمها على النظر الى محاسن الدين الحقيقي الذي تشبع به هذا الامير فتسمو الى الاعالي دون ان توجس خيفة من التدرج الى هذا الحضيض الاسود الذي ينحدر اليه كل الذين لا يمازجون حب الدين منذ نشأتهم

ذكر معاملة الابن لابيه

ان حب الوطن وحب الحنين واجبان عظيمان ولكن هنالك واجب اعظم هو حب الاب وحب الام ولولا لذة هذا الحب لم تكون عظمة الوطن ولم تتأسس فكرة الدفاع فلولم يك لك اب وام لم ينبت في نفسك هذا النبت الجميل الذي هو تمجيد الارض التي ولدت فيها وقضيت ايامك تحت جوها الصافي

فيا ايها النشء يا عظمة الآتي ، يا امل الغد المقبل ليكن سيرك في طريق الحياة سيراً تنيره عاطفة حبك لابيك وامك كما كان شأن الامير حيال امه وابيه

احبب اباك وامك تسعد ايامك وتقر عينك وتحب بكل امانة قريبك وجارك وكل امريء على وجه الارض .

كان صاحب الترجمة رحمه الله باراً بابيه شديد الحنو عليه كثير الحرص على سلامته ولوعاً بكسب دعواته الصالحة واحراز رضاه وارتياحه ولم يك يعمل عملاً الا باشارة منه ولا يطلب امراً الا اذا كان ابوه مرتاحاً الى هذا الامر وكثيراً ما كان يتحاشى اهاجة عواطفه واثارة مشاعره او اقلاق راحته وكثيراً ما كان يلازمه في غدواته وروحاته ويشاركه في حركاته

وسكناته و بقلده في اعماله واشغاله ويشاطره عبادته وتقواه ويقاسمه سراءه وضرائه ٠

فهذا الحب كان نتيجة طبيعية لتربيته الدينية حتى ان اباه رضي الله عنه ادرك عظيم ميله اليه ووثق ان للدين تأثيراً عليه فلاطفه ملاطفة جميلة قائلاً له لا انبك الله في حياتك ولا في مماتك فانك لم تتعبني وقد سر الامير يومئذ سروراً عظيما واستشعر بلذة تفوق الوصف كأنما هو امتلك الارض عَلَى رحبها ٠

ان دعاء الاباء وركوعهم امام الله بخشوع وسكينة من اجل اسعاد ابنائهم روح صالحة قدسية تدب في نفس الابن وتزرع فيها مغارس الامل وتبعد عنها اشباح القنوط فلا يعيش مثقلاً بالهموم والمتاعب واليأس والعذاب ويقدم عَلَى خدمة وطنه بكل ارتياح وسكينة وهدوء ضمير ٠

وهكذا حدث للامير فانه بما اكتسب من ارتياح ابيه قد ادرك مبتغاه من المجد والشرف وارتقى الى اعلى قنن الفخار والسؤدد فلم يمنعه ذلك من الاقرار بان ماناله كان ثمرة من ابيه وجاهر امام القاصين والدانين بالحقيقة الواضحة التي لا ينكرها المكابرون وهي من احب ان تصفو حياته وان تسعد ايامه فما عليه الا ان يخفض للوالدين جناح الرحمة ويشاطرهما الاسعاد والانكاد ذلك هو الفوز العظيم ٠

قال العالم باستور احد اطباء الفرنسيس ١٨٢٢ — ١٨٩٥ يخاطب ابويه

يوم اطاف الناس به ليقيموا حيث ولد تذكاراً من حجر الرخام لجميله وسؤدده « سلاماً ورحمة ايها الابوين فقد قضيتما الحياة على القناعة في بيت صغير فبارك الله لكما فما بي من حسنة الا منكما ثم قال :

كانت حياتك يا ابت ضنكة مرة فعلمني التثبت والتجلد واوجبت الي ان اشخص ببصرك الى الله وانهض بقلبك الى العالي ، علمتني فابنت ما للامة من المجد والعظمة . ذلك اقرار بالجميل يظهر على شفتي باسترور و يعترف به لابيه فلولا لا مطالع مجده وازدان مشرق سؤدده

فيا ايها النشء لا ينبغي لك ان تنصرف عن حب ابيك وامك وان لك قدوة حسنة بعلي فان المرء يكبر شرفاً بحبه لابيه وفرق ذلك فان مصلحة الذات ومصلحة الامة امران يوجبان هذا الحب

اقام السلطان في دمر الغناء يستمع اهازيج جداولها وانهارها و يجلو بصره بمحاسن مشاهدها وجمال مناظرها و يتلذذ بعبق ازهارها واغصانها وكان علي في ذلك العهد لايفارقه ولا يبتعد عنه فالتفت السلطان اليه وقد اطلقت العناية لسانه للبوح بما في جنانه وقال وهو يشير الى تلك الرياض الساحرة والغياض الباهرة التي هي كل ما في دمر من الجلال والرونق « ياليت شعري ان تغدو دمر من بعدنا »

فاحس الامير الصغير بتأثير هذه الكلمات عليه فنظر الى ابيه نظر الحب والحنان وقد ترقرقت الدموع في عينيه وقال « لا يحزنك خبرولا

يخيفك امر فدمن سوف ستبقى الى الابد مورقة الافنان مخضلة الاغصان وسوف يسطع نوركم في جوها الصافي ، ويعبق نشركم في حدائقها وكرومها ورياضها ما كر الجديدان وسطع الفرقدان ،

ولم يمض على قوله هذا سبعة وعشرون يوماً حتى انتقل السلطان الى رحاب السماء متخلياً عن هذه الغبراء ومنذ ذلك العهد لم يعد يشغله غير مصلحة الاسرة ومصلحة الوطن

اسرة ووطن اسمان يرنان في الاذن رقة وشعوراً وعظمة على وتيرة واحدة فما حب القلوب الا لها ولا ابداء الارواح الا في سبيلها ولا قوة الشبـاب ولا عزم الرجال الا لاجلها ، ان مسلمي الاحقاب الغابرة ، ومؤمني الاعصر الدابرة الذين بسطوا ظلال نفوذهم في فجاج الارض ونشروا اعلام سؤددهم من جبال الاطلس الى صحاري افريقيا الرملية قد اقاموا قواعـد سياستهم واركان دينهم على احترام الاسرة واحترام الوطن وقد توخوا في هذه الغاية السعيدة الشريفة صيانة التكافل والتضامن حتى ينموا في الارض وحتى يتوفر عددهم فيرهب الكون جانبهم او يخيف الورى عديدهم ، وهكذا علي فانه بحبه اسرته كان يحذو حـذو ابائه واجداده وكان من اقصى اسانيه وابعد احلامه ان يتسع نطاق اسرته فتنتشر في القرية والضاحية والسهل والربض والمقاطعة والمدينة

وهو بخلاله هذه وحبه لوطنه وتفانيه في خدمة دينه وخلافته ادرك

المناصب العالية التي لم يحرزها غيره وعالج المراتب السامية التي قعدت عنها همم الكثيرين واصبح اسمه في البادية القحلاء والمدينة الزهراء منشور الصدى وقربته الملوك والامراء وصبت اليه جوانح الكبراء والعظماء كل ذلك لاستقامته وعلو همته وبره بابيه وامه وحبه لامته وسنأتي عَلَى بيان اعماله باسهاب حتى نفيه حقه من الاجلال والتكريم

المبادىء الكبيرة في النفوس الكبيرة

ماقيمة الملك او الامير او القائد او الشاعر الا ما احسن وقد قال الكونت اوجين دي سغري لا يخلد الانسان الا فضله ونبله وعمله وفضيلة المرء هي ان يحسن الى بيئته ووسطه

ونحن نقول ان الملك والقائد والامير والشاعر اذا لم تكسب اعمالهم الناس خيراً ونفعاً فان عيشهم كالهباء ولعمري ان الذين لا يفيدون باعمالهم جديرون بان يلتحفوا ظلمات رموسهم حتى لاتقع عليهم لعنة البشر ولعنة الناس

ففضيلة العمل هي التي اهابت بالكونت اوجين دي سغري الى الاعتراف بمزايا السلطان عبد القادر تلك المزايا الطاهرة التي شرفت اعداءه وهي التي بعثته ايضاً الى هذا الاعتراف « ان عبد القادر هو فوق الملوك ولقد كرمه الله فلم يأت نقيصة واحدة تشبه نقائصهم الكثيرة »

ان المبادىء هي التي تسير المرء وهي التي تقوده اما الى الخير واما الى الشر ولطالما رأينا الكثيرين يحدثون الضجة والجلبة حول مبادئهم فيأتون في سبيلها اما خيراً واما شراً . كل بحسب ارادته فاذا كانت ارادة الرجل منصرفة الى جهة الشر فانه لا يلبث ان يدرك ثمرة تصلفه وبغيه وعسفه صاعداً على درج مخضوب بالدماء واذا كانت منصرفة الى الخير فانها تقوده الى مواطن النور والضياء

والنفوس الكبيرة تستأنس بالعظمة والسكينة والكمال وتأتي اعمالها بهدوء لان الارادة هي التي تسيرها في الطريق الذي تختاره

قال سنكا احد فلاسفة اللاتين — ١٢٨ — ٦٥ قبل الميلاد (لا سيادة ان لم تسد الارادة) ويقول اميل فاكه الفرنسوي (لا يتيسر للمرء ان يسود الناس الا متى كانت له السلطة عَلَى نفسه وكان عقله يملي عليه اعماله . نعم ان الارادة التي لا تردد معها ولا زعزعة فيها تصلح جميع ما فسد من الاخلاق كما انها تصلح كثيراً مما اختل من الامور فمن علقوا بها فكت قيودهم وكانوا احراراً حقاً لانهم يقومون عَلَى مداركهم واعمالهم ويسدون افكارهم وعواطفهم ويجعلون كل ما في انفسهم تحت زعامة العقل ويسيرون كما يملي عليهم الوجدان والحكمة . ولقد ادرك الامير انه في اقصى الحاجة الى الارادة في كل مشاريعه وشؤونه ومهامه فتمسك بها

وظهرت في كل اعماله واشغاله ومساعيه وقضاياه وحركاته وسكناته فبلغ بها اسمى غايات الفضيلة وابهى مقاصد الشرف

عَلَى ان هذه الارادة ظهرت ظهوراً كاملاً في دائرة واحدة هي خدمة المصلحة العامة وأعني بها مصلحة العالم الاسلامي فان الامير اعتنق مبدأ الدفاع عن الجامعة الاسلامية ·

مبدأ الجامعة الاسلامية محفوف بالمكاره والمشقات لان الغاية منه هي ربط الشعوب المسلمة ببعضها وهذه الشعوب متنافرة منشقة عَلَى بعضها منقسمة على مجموعها تحكمها أمم قوية وشعوب صلبة صعبة القياد تختلف عنا في العقيدة والمذهب واللسان والعرق فالظهور بمظهر الجامعة الاسلامية والمجاهرة بسلخ الشعوب المحمدية عن الظالمين الجلادين امر لا يخلو من الرهبة وهو اخطر المبادئ واكثرها ضرراً ولكن الامير لم يكترث بهذه الاخطار ولم يعتد بالكوارث والاضرار لان نفسه الشريفة ابت عليه الا ان يعتنق هذا المبدأ العالي السليم وطبيعي ان المبادئ الكبيرة لا تتحمل وقرها الا النفوس الكبيرة

وكان رحمه الله تعالى يخشى التردد والاحجام وفوات الفرص وكان يعتقد بان التردد والتوقف في بعض الاحايين خطأ غير مغفور وذنب غير مبرور يفضي الى فتن مستطيرة ومحن معقدة

والجامعة الاسلامية التي كانت دول الغرب تفرق منها اشد الفرق كانت لا تبرح تثير شواغله فتظاهر بها غير هياب ولا وجل مستبدأ على

عقيدته الدينية التي انطبعت في روحه وعلى الارادة القوية التي كانت اكبر وافضل صفاته

ان الابناء يسيرون على نهج الاباء في الغالب والابن الشريف الذي يكون والده الامير عبد القادر لا يبعد ان يصور في نفسه امل انقاذ الملايين العديدة من المسلمين الذين يرزحون تحت اسارة الانكليز في الهند ومصر والفرنسيس في تونس والجزائر ومراكش والايطاليين في طرابلس الغرب وفي الفصول الاتية سنأتي على تفصيل سيرة هذا البطل العصامي النابغ بصورة مفصلة

الجامعة الاسلامية والامير

ذكرنا في الفصل السالف ان الامير قد نشأ على حب الجامعة الاسلامية وانه كان يرى ضرورة استقلال الامم الاحمدية وانضمامها الى الخلافة الكبرى والامامة العظمى والان يجمل بنا ان نأتي على الاعمال الخطيرة التي جاء بها في ذلك السبيل الاقدس الذي يحق لكل مسلم مؤمن ان يسلكه مفادياً بنفسه ونفيسه

ان فكرة الجامعة الاسلامية ليست فكرة جديدة وانما هي قديمة يرجع عهدها الى العصر الاول من الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم قد اوصى بصيانتها وامر المسلمين باتباعها و بسلوك مناهجها حتما تتقوى بينهم

رابطة القربى والاخاء وعلى هذا درج الخلفاء الراشدون بعد وفاته عليه السلام فنشروا الدعوة في سائر الاقطاع والاقاليم ووحدوا فكرة الفارسي والعربي والتركي وكان المقصد من هذا الاخاء الاسلامي دائراً حيال الوحدة الاسلامية حتى لايحيط بها كيد عدو خاسر او شر جاحد كافر و بذلك تصان الشريعة من التمزيق والانثلام

ولما تشتت شمل المسلمين في الاعصر المتأخرة بسبب تفرق كلمتهم وتخاذل قواهم وتنافر مقاصدهم واختلاف آرائهم وتباين نزعاتهم ومباديهم انشب العدو اظفاره في لحومهم فقطعها ايا تقطيع ونشر اعلام سلطته على بلادهم وانتزع خيراتها ونهب زروعها وحقولها وكرومها ولم يترك غير السراب والخراب واليباب والعذاب وكانت الضربة الاخيرة التي سقطت عليهم خسرانهم قطعة افريقيا الاسلامية التي هي تراث الفاتحين ومنشأ عظمة المحمديين التي تسربت من هذه الصحاري والبوادي الى فجاج الاندلس وسفوح البرينيه و بطحاء طورس واذ لم يبق ما ينصرهم على عدوهم او ما يصدهم في حالم المغرق بالشقاء تنفسوا الصعداء وتطلعوا ملياً الى ما يحيط بهم من البلاء وما يحدث من الشقاء وتجلى لهم ان الرجوع الى التمسك بالاتحاد يخلصهم من ظلمات الاستعباد والاضطهاد وانهم اذ ظهروا بمظهر سداه الجامعة الاسلامية ولحمته الفكرة المحمدية فان اعداء دينهم يتزحزحون عن ديارهم التي سعدت بهم عصوراً واشرقت بمجدهم

احقاباً ودهوراً ومنذ ذلك اليوم الذي تسربت اليهم فيه هذه الفكرة طفقوا يجوبون الديار البعيدة والاقاليم القاصية النائية يبثون فيها دعوتهم وهم اما مظهرون مقاصدهم واما مبطنون اغراضهم واحلامهم فبعضهم فاز بغرضه من بث فكرته و بعضهم اعترضته العراقيل فمات في هذا السبيل

ولما كان الامير زعيماً من زعماء الاسلام ورئيساً من رؤساء لم يطق سكوتاً امام ما يحتقبه الغربيون بالمسلمين فقام رافعاً عقيرته للدفاع عن هذه الغاية السامية وذلك المقصد الجليل والغرض النبيل سيما وهو احق الزعماء برفع صوته واشهار سوطه واولى الامراء بصيانة حقوق الاسلام لانه سليل مؤسسه ونبيه ولان الجزائر وهي دار ملك ابائه ومقر دولته وموضع نصرته ومباءة ميلاده ومثوى مجده ومولده يحتلها عدو جبار و يسومها الخسف والعار في سواد الليل و بياض النهار واهلها لا يستطيعون ان يدفعوا ظلماً او يردوا غرماً يتضون بجمرهم على اسى ، ويضرون ديجورهم على قذى فشبح الارزاء التي كابدها و يكابدها هؤلاء الشهداء الابرياء كان يبدو لعينيه بشكله المخيف فبذل الاموال الطائلة والمبالغ العديدة في نصرة هؤلاء وسعى الى تخفيف ما بهم من الشقاء وضم اليه حلقة كبيرة منهم غرس فيها روح البغض والعداوة ضد اولئك المستعمرين

واوشك عمله ان يثمر في تلك الصحاري المنبسطة والبوادي النائية المظلمة واخذ القوم يتحدثون بذكره و يترنمون بخبره و يتلذذون بترجيع

اسمه وترتيل محامده ومناقبه واخلاقه وقد رأوا فيه ذلك الرجل المنتظر الذي تتحين افريقيا برمتها ظهوره ومبعثه ليقودها الى حيث بريق الظفر تأخذ لمعته الابصار وتسترق نضرته الافكار وكان الافريقيون واخصهم اهالي الجزائر يعتقدون بان واحداً من السلالة القادرية سوف يطل على تلك البطاح والسهول فيخلص شعوبها ويرمي بالمستعمرين الى لجج البحر الى بداء ولقد اثرت هذه الاعتقادات فيهم تأثيراً اصبحوا معه يبدون استياءهم من حكم المستعمرين وباتوا يجاهرون بقرب ظهوره ويرتلون نشيد فوزه ونصره دون ان يبدل من عقيدتهم عسف المستعمرين وظلمهم وطفقوا يجوبون الصحاري مبشرين بظهور الرجل العبقري النابغ الذي اصطفاه الله لتخليص المؤمنين (١) وطرد المحتلين

وتكالبت عليه صحف الفرنجة وكتابها تسلقه بالسنة حداد مكثرة من

(١) كتب الدكتور فرانسوا كستوي الفرنسوي في كتابه (الجزائر) المطبوع في باريس بمطبعة جوفه وشركاه عن اعتقاد اهالي الجزائر بظهور مخلص من آل عبد القادر ينقذ افريقيا من استعبادها المر وقد اطال البحث في هذا الشأن فاحببنا ان ننقل اهم ما كتبه على الصورة الآتية :

ان من النبوات الهامة التي اصبح الاعتقاد بها عاما في الجزائر نبوة تشير الى قرب ظهور (مولى الساعة) الذي سيبدل اوضاع الكون ونظاماته بقيامه ضد الانسانية جمعاء والقائها في غياهب مظلمة لاعتناقها المر ولشرائعها المؤذية المهلكة . وكل جزائري مهما كانت درجته في العلم والمعرفة يعتقد بصحة هذه النبوة ويراها اسما لا ينفصل عن دينه وشريعته واول من اذاع خبرها ونشرها هو الامام البخاري

السب والشتم واظهار المسبة واللوم فما روعه هذا الصياح وما اخافه ذلك النداء وظل على جهاده مبتغيا احراز مراده

ولما ادرك الاعداء مقاصده واغراضه وعرفوا ما يضمر وما يطوي نزعوا الى ايذاءه واسكاته بالوسائل العديدة والتهديدات الشديدة وصرحت رجال السياسة منهم على المنابر ان الامير علي بن عبد القادر قد سلك مسلكا خشنا وانه يتوخى للفرنسيس ضعفا ووهنا وان الحذر منه امر لا استغناء عنه

هذه هي سياسته المثلى بازاء الجامعة الاسلامية وهي اريحية ورثها عن

. الاعظم والمرشد الاكبر والبسها ثوبا من الصحة لا تنكر صورته واسند وقوعها الى حديث قاله نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم نذكره بحروفه :

سيأتي رجل من بعدي وسيكون اسمه مشابها لاسمي واسم ابيه كاسم ابي وان لامه اسما شبيها باسم امي ايضا وسيكون مضاهيا لي بالاخلاق والاعمال ولكن ملامحه لا تكون ملامحي وسينشر في الناس العدل والوفاء

كل مسلم يعتقد بهذا الحديث لان البخاري هو الذي نقله ورواه ومنزلة البخاري في المسلمين منزلة عالية لانه مرجعهم في معرفة حديث رسولهم صلى الله عليه وسلم على ان الساعة التي يأتي فيها مولى الساعة غير معينة . و يقول بعض اهالي الجزائر ان السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين هو الذي سيعود الى مجلى الظهور في الشام فيخرج من هذه الارض المباركة الى افريقيا بجيوش كثيفة من المسلمين و يحارب جموعنا حتى يتسنى له الفوز والنصر و بعضهم يقول ان واحداً من سلالته سيخرج لمحاربتنا وان هذا الرجل سيحرز الفوز القطعي ضد جيوشنا في الصحراء الممتدة من جبال مراكش الى صحاري لبيبه (طرابلس) اه الحديث المذكور للترمذي وليس للبخاري

ابيه الذي بنى للاسلام صرحا من المجد قصرت عن ادراكه فحول الرجال وكبار الاقيال فما على الذين ارادوا ان يخنقوا روح الحقيقة الطاهرة بالافك والتزوير والضغينة والشرور الا ان ينظروا الى هذه الشمس المشرقة والى هذه الدرة البارقة التي ستظل الى الابد وضاءة الشعاع رغم خداع ذوي الخداع

الحرب الطرابلسية

صفحة من حياة البطولة والشرف

ان المسألة الشرقية او المعضلة الاسلامية على الارجح يرجع عهد نشوءها الى الحين الذي اجلى فيه الاسبانيول عرب الاندلس عن بلادهم فان مجمع القسس الذي عقده الكاردينال اينياس دي لويلا والكاردينال توركامادا في مادريد قد قرر محاربة الاسلامية بشدة واكتساح بلادها واجتياح معالمها واقطارها والذين طالعوا تاريخ الاحقاب الخالية واسفار الاعصر الغابرة يعلمون النتائج التي انتهت بذبح الالوف الوفيرة من ابرياء المسلمين ومنذ ذلك الحين ايضا طبعت اوربا بغض الامم الاسلامية في قلبها وقرر ملوكها القيام بالاغارة على املاك المسلمين كلما سنحت الفرص

ولما كانت قوة الاسلام كلها محصورة في قطعة افريقيا الشمالية لاشتمالها على عنصر قوي كبير من المسلمين فكر الفرنجة بتصويب كل

امامهم الى هذه القطعة الكبيرة لخنق روح الاسلام فيها وبعدها يسهل عليهم ان يذلوا المسلمين ما شاؤا اذلالهم

لم يك للمسلمين قبل فتح الاقطاع المغربية غير ما فتحوه في سوريا والعراق فلما هبطوا بلاد الفراعنة ودوخوها اخترقوا الصحراء وجابوا اغوارها وانجادها غير مبالين بحر الرمال ولا بوهج الشمس وما هي الا فترة حتى خفقت اعلامهم على قطعة عظيمة تبلغ مساحتها اضعاف مساحة القطعة الاوربية وباتت طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش املاكا ترفرف فوقها الراية المحمدية وفي مدة قليلة تبدلت اوضاع هذه القطعة الفسيحة من الارض فاصبح اهلها يدينون بدين واحد ويتكلمون بلسان واحد ويتخلقون بخلق واحد واصبحت اسبانيا وما يتاخمها من ممالك النصرانية تحت رحمة هذا البركان الاسلامي الذي اشعلت نيرانه حماسة طارق بن زياد وموسى بن نصير وعقبة بن نافع رجال الله على الاطلاق وغير خفي ان ابطال المسلمين بعد ان تسنى لهم هذا الفتح المؤزر سمت بهم الهمم الى ركوب المصاعب فنزلوا في جبال الاندلس الشامخة الاعلام حيث انحدروا منها الى سهول فرانسة وبطاح غاليا القديمة ثم منذ ذلك العهد تأسست فكرة ملاشاة المسلمين وتفريق جامعتهم ومنذ ذلك العهد ايضا تسربت فكرة الحروب الصليبية الى ذاكرة دول النصارى في الغرب

ولقد التحم العرب المسلمون وجيوش الفرنجة الصليبيين جسدا لجسد

في الحروب التي دارت بينهم في صحاري تورس والنجاد برانيه حيث تسنت الغلبة يومئذ لشارل مارتل كبير النصرانية وحيث رجع المسلمون امام الجيوش الصليبية الجرارة لا يذكرون من تاريخ مجدهم غير تلك المواقع المجيدة التي تحطمت فيها كبرياء القديس لويس واغويست فيليب تحت سنابك خيولهم والتي جعلت الأسم العربي اسمى من النور والضياء

ويظهر ان هذا الظفر الذي احرزه الصليبيون قد ضاعف في نفوسهم امل ملاشاة المسلمين وتفريق جامعتهم حتى لا يكونوا خطرا عليهم فظلوا يتربصون الوقيعة بهم آمادا طوالا واحقابا مستوفرة حتى ظفروا بالاستيلاء على كبريات الاقطاع في افريقيا الشمالية واصبحت الجزائر وتونس ومراكش ومصر في خبر كان يريق المسلمون في اطلالها وبلاقعها ودموعهم الحزينة

ولما كان العنصر اللاتيني عـدوا لدودا لعنصر العرب فقد انحصرت المؤآمرة ضد العالم الاسلامي فيه فتضافر الفرنسوي والايتالي والاسباني وكلهم من اللاتين على اقتسام افريقيا فاستولت فرانسا على الجزائر وتونس ومراكش واسبانيا على بلاد الريف وبلاد الساحل وبقي على التليان وهم احقر الشعوب اللاتينية ان يقتسموا ما بقي من تراث المسلمين في افريقيا حتى اطل عام ١٩١١ وظهرت مكيدتهم ومؤآمرتهم واغارت ايتاليا على طرابلس الغرب وهي آخر مابقي للاسلام · واعترف القسس

والرهبان والكرادلة في مجامعهم انهم يعلنون حربا صليبية ينتزعون بها املاك المسلمين وان غاياتهم هي منحصرة في حصر المسلمين ضمن زاوية ضيقة في جبال جزيرة العرب

ولقد اعد الايتاليون لذلك عدتهم فجيشوا الجيوش وسيروا الاساطيل فمخرت في البحر المتوسط حتي حازت شواطئ طرابلس الغرب فالقت عليها نارها وارسلت شررها بينما كانت جيوشها البرية تقاتل على التخوم عصائب المسلمين الضعيفة

وبينما كانت دولة ايتاليا تنادي بانها تحارب باسم الحضارة والمدنية كان البابا وهو رئيسها الديني يجاهر بان الحرب هي ضد الاسلامية تشهرها النصرانية لتقرير الحضارة والتمدين

وكان الايتاليون يظنون حربهم هذه من الامور السهلة ولكنهم عادوا فتحققوا الواقع اذ صمد لهم المسلمون وحاربوهم محاربة اورثتهم الخسار والعار رغم ضعفهم ورغم قوى العدو في البحر والبر

وهذه البسالة الشريفة النادرة كانت مدعاة لاعجاب العالم باسره وكانت سببا في تكافل المسلمين وايقاظهم من وهدة خمولهم وسباتهم وباعثا قويا على مناصرة بعضهم البعض

واذ تحقق لدولة الخلافة الاسلامية وجود هذا التضامن وذاك التكافل فتحت صدرها وتنفست الصعداء وتقوت عزيمتها في الدفاع عن

طرابلس العزيزة التي اصبحت تذكارا اخيرا للمسلمين في قطعة افريقيا فارسلت الرسل الى مقاطعتي طرابلس و بنغازي لحث العرب في البقاء على مجالدة العدو ومناضلته وحيث كانت للدولة العثمانية اكبر ثقة في شخص الامير قربته اليها وادنته منها وعرضت عليه رغائبها وصورت امامه حرج الموقف وابانت ضرورة ذهابه الى طرابلس الغرب لاستنفار المغاربة للجهاد حتى الرمق الاخير

وكان الامير محبوبا من اهالي طرابلس الغرب بصورة خاصة وكان له في قلوب اهالي مراكش وتونس والجزائر اكبر احترام فاحبت الدولة العثمانية ان تستخدم عاطفة هذا الحب في مصلحتها فاناطت بالامير مشروع الاتحاد الاسلامي الافريقي

الامير في القصر السلطاني

اظهرنا في الفصول السالفة ما للامير من الاحترام في طرابلس الغرب والآن نذكر ان عائلة الامير عبد القادر الشريفة التي دافعت عن شرف الشريعة الاسلامية مدة سبعة عشر عاما لا تبرح الى اليوم مرجع المسلمين في معضلات الشؤون وكبيرات الحوادث ولقد عرف الخاص والعام انها لا ترد طالبا يسألها الحماية وحسن الجوار

هذه العائلة المجيدة التي نشرت اعلام سيطرتها ازمنة مختلفة واحقابا متباينة على طول مراكش وسائر المغرب والتي حطمت سنابك خيلها اريحية وكبرياء الملك سان لويس(١) والملك فيليب اوغيست(٢) في معاركها المثارة باسم الدفاع عن الاسلامية ضد الصليبيين تولى رئاستها بعد موت كبيرها وعميدها السلطان عبد القادر نجله البطل صاحب هذه الترجمة ولقد رأى القراء ما انطوى عليه هذا الامير الكريم من مكارم الاخلاق وشرف المبادئ والميل الى نصرة الدين القويم

فلما دارت الاشاعة القائلة بان الدولة ستركن اليه وتنيط به وهي في احرج المواقف وادق الظروف مهمة الجهاد بفكرة الجامعة الاسلامية

(١) احد ملوك الفرنجة الذين اثاروا الحرب الصليبية في القرون الوسطى وقد كسره المغاربة ومات مقهورا في تونس الخضراء

(٢) ملك من ملوك الفرنجة الصليبيين كسره المغاربة ايضا

والمناداة في صحاري طرابلس بوجوب البقاء على مجالدة العدو اظهر ارتياحه الى هذا المسعي الاسلامي الجليل وابدى شوقه الى خدمة دولة الخلافة باخلاص وامانة وهكذا فان النفس الكبيرة تشعر بضرورة القيام بواجب الشرف حينما يدعوها صوته ونداؤه

ولقد كان مجلسا الاعيان والنواب قد صادقا على ارسال الامير الى البقعة الطرابلسية بصورة سريعة وفي اليوم التالي من صدور قرارهما هذا ذهب الامير الى القصر السلطاني فقابل جلالة الخليفة مرتين وفي كلتيهما نال من جلالته التفاتا كبيرا ولما عول سموه على مغادرة العاصمة عاد الى القصر السلطاني مبتغيا توديع جلالة السلطان وكانت المقابلة هذه المرة ايضا على غاية من جمال التأثير فان جلالة السلطان كان ينتظر سمو الامير مبتسما فامره بالجلوس وظل نصف ساعة مظهرا للحب السامي ثم استأذنه بالانصراف فقال له السلطان اجلس اجلس وتكلم ثم سأله بكمال اللطف الملكي عن اولاده وعددهم فقال لجلالته ان له ثلاثة ذكور واربع اناث فجعل جلالته يقول ما شاء الله ما شاء الله لا يحزنك فراقهم فساحيطهم برعايتي واغمرهم بحبي وعطفي لانهم اولادي ومهما كانت حاجتهم فاني ابلغهم اياها وعساك تحيطهم علما بذلك فشكر الامير جلالته وودعه بحرارة وعند خروجه استقبله رئيس حجاب

القصر وسلمه ساعة مرصعة بالحجارة الكريمة وقال له ان الخليفة يهديك هذه الساعة لتعرف بها اوقات صلاتك وقد تتذكرجلالته بها فتدعو له الدعاء الحسن فشكره الامير وخرج

فيا ايها النشء الآتي تأمل بعطف خليفتك فانه لم يكن مدفوعا اليه الا للاقرار بجميل العاملين

اعمل لسلطانك واخدمه كما خدمه هذا العظيم تكسب ثناء وطنك وامتداح امتك

الامة تودع الامير البطل

ارادت الامة ان تودع الراحل وتثبت له تعلقها به واحترامها له واعترافها بجميله واقرارها بفضله فاخذ عددها ينتشر في طرقات استانبول وشوارعها مترقبة عودة الامير من القصر السلطاني ولما اطلت عربته الفخيمة هتفت له الجموع هتافا حادا حارا ورشقته بالازاهر والرياحين فكان يجيبها على هذا الهتاف الذي هو دليل احترامها له بابتسامة لطيفة تترقرق فيها معاني الرحمة والرقة وحلوالشعور

ان الامم في كل ادوار حياتها في رقيها وانحطاطها لا تبخل باكرام نابغيها ولقد رأينا المسلمين في عصورهم الاولى يتفانون بتكريم ابطالهم والطواف بهم في الاقاليم الشاسعة والاقطار الواسعة كذلك كان رومانيو

الاحقاب الخالية مع ابطالهم ورجالهم الاذكياء فاذا اكرمت الامة اليوم الامير فذلك لانها تسير في المسري الطبيعي الذي سارت عليه الشعوب الاولى · وخرج الى وداع الامير اعاظم السلطنة فالوزراء فالكبراء فاعضاء مجلس الامة فاعضاء مجلس الاعيان فجمهور كبير من التلامذه ، كل مقر ومعترف بخطورة الغاية التي يحملها الامير على عاتقه وكل واثق بانه سيفلح وسيفوز لان ارادته الصلبة الحديدية لا تقاوم · اجل ان الامير كان كبير النفس، عظيم الارادة ولو لا كبر نفسه وعظمة ارادته لما توصل الى احراز رئاسة مجلس الامـــة وهو المجلس الذي ينطق بلسان الملايين العديدة من سكان هذه السلطنة الفسيحة الارجاء

السفر الى مواطن الشرف

برح صاحب الترجمة قدس الله سره عاصمة الخلافة قاصـــدا بلاد النيل ليسير منها الى طرابلس الغرب فبنغازي حيث ينضم الى جيوش المجاهدين ولما وطأت قدماه ارض الفراعنة اقامت له القوميسرية العثمانية هنالك مهرجانا عظيما دعت الى حضوره الجالية العثمانية في مصر وفي خلال ذلك المهرجان البديع القيت خطب التهاني وتبودلت عبارات الوداد وخطب ايضا بعض مسلمي مصر في موضوع الجامعة الاسلامية وجهاد الامير علي في سبيلها وحرمانه لذيذ الراحة من اجل اسعاد المسلمين

ومما ذكره الخطباء ان الامير يحذر حذو ابيه في الاحسان الى الامة المحمدية وان اباه كانت له اجمل المساعي المبذولة وراء صيانة عروة الجامعة فاذا نهج الابن منهج ابيه فليس الامر من المستغربات

وبعد انفضاض هذه الحفلة الباهرة برح سموه دار التوسيرية العثمانية مذودا منها بالتهاليل والاهازيج وشخص الى التخوم حيث تراكضت الامة المصرية الى الاستضاءة ببدر محياه الانور واخذت تبتسم له وتناديه باحب الالقاب والاسماء وهي الامة الوحيدة التي استفزها خطب طرابلس الغرب وبرح بها وما ذلك الا لامرين اولهما ان طرابلس جارة متاخمة لمصر والجار يتألم لالم جيرانه والثاني ان مصرا لا تبرح تئن تحت مراقبة المستعمرين واستعبادهم منذ زمن قصي شاسع وهي تقدر الظلم الذي تقاسيه الشعوب المحكومة المضطهدة فاغارة الايتاليين على اقليم طرابلس الغرب معناه خنق حرية الاهالي والضرب بيد حديدية على استقلالهم ومقدراتهم

وكان وصول سموه الى التخوم الطرابلسية واختراقه اياها مملوءين بالهدوء والسكينة

الاختلاف على الجهاد في دار الامير

بدمشق

ان عائلة الامير عبد القادر التي هي اكبر عائلات الشرق شرفاومجدا واذكاها ارومة واطيبها فرعا مشهورة منذ القدم بتنافسها في سبيل الشرف واحراز المقاصد النبيلة فكما ان السيد محي الدين الجد الاكبر لهذه العائلة قد دفع ولده ساكن الجنان السلطان عبد القادر الى محاربة الفرنسويين والوقوف امام جنودهم مدة سبعة عشر عاما قهر في خلالها مائة وخمسين من القواد وعشرة من المشيرين (مارشال) وخمسة من امراء العائلة المالكة في فرانسا وستة عشر شخصا ممن تولجوا شؤون نظارة الحربية في فرانسه (١) فهكذا كان الامر مع ابناء الامير علي الذين تسابقوا الى اللحاق به الى مواطن الشرف وقد اختلف ولداه الكريمان الامير محمد سعيد والامير عبد القادر سمي جده الاكبر من اجل هذه الغاية الشريفة وطفق كل واحد منهما يجعل لنفسه الحق بالذهاب الى طرابلس حتى تحرج الامر بينهما وتفاقم الخلف لولا انهما اقترعا عَلَى ايهما يلحق بدار الحرب في اثر ابيه فاصابت القرعة عبد القادر الذي لم يمض عليه ردح طويل حتى كان قد قطع التخوم الى طرابلس الغرب

---

(١) ذكره الكونت سفري

ان الابطال هم في كل زمن وعصر مجلى للحوادث الجسام فمنهم تظهر الاعمال الفريدة ومنهم تظهر العادات المستحبة التي تغدو للاجيال الاتية امثولة جلى ومن اصلابهم ينحدر بنون شرفاء فالامير سعيد والامير عبد القادر تسابقا الى كسب الشرف اسوة بابيهما الكريم فحمدهما الناس كليهما ٠

ان الامير سعيد وان لم يشترك فعلا بهذا الجهاد فقد كان يود من صميم فؤاده لو تسفح دماؤه في سبيل الامة الاسلامية ولقد عرفه القاصون والدانون بانه ذلك العصامي الابي الذي ظل الامد الطويل على دفع اذى السياسة الاجنبية حتى غرس الرعب والذعر في روح كليمانسو ودوميرغ وشارل همبرت من زعماء السياسة في القرن العشرين وهو اول من وضع حجر الزاوية في استقلال القطعة الافريقية الذي سيكون نتيجة حوادث الايام المقبلة فبهذا العربي الشريف يحمد الاقتداء ، وبنوره الابلج المشرق يستعذب الاهتداء ، ومن ينبوع كرمه وعطفه يحلو الارتواء

وصول الامير الى دار الحرب

لما وصل الامير قدس الله روحه الى الاراضي الافريقية ولمعت انواره الطاهرة في تلك البطاح المغربية وشهد المجاهدين متضافرين متحدين ابرقت اسرته واستعذب ورد الردى وراء تخليص امته فارسل الى والديه كتابا اوصاهما فيه بالسهر عَلَى اسرته والاحتفاظ بحقوقها والاعتناء بامرها وعهد اليهما البر باقاربه وذويه ثم اتى عَلَى ما ملخصه :

ان مجلسي الاعيان والوزراء قد كلفاني بالذهاب الى طرابلس الغرب للذب عن حياض الوطن والمحافظة على البلاد التي يريد العدو اجتياحها بالطرق المخالفة للشعائر الانسانية والمغايرة للعهود والحقوق الدولية فلم تسعني والحالة هذه الا الاجابة والقيام بهذا الواجب الوطني الديني فأسال الله تعالى ان يكون لنا خير معين وينصرنا على القوم الظالمين فلا يجمل بكما ان تسترسلا الى القلق والاضطراب فكل مايصيب المرء خيرا كان ام شرا انما هو من الله رب الارباب وسوف لا اتردد عن ايصال الاخبار السارة اليكما اما الآن فيسير في صحبتي كثير من كبار الضباط والقواد وعدد كثيف من متطوعة المغاربة . اه

وكان الامير قد ارسل الى عائلته الكريمة كتابا اخبرها فيه بوصوله الى طرابلس سالما غانما فاستبشرت ايما استبشار وزاد فرحها حينما اخذت

البرقية التالية الواردة من سيدي براني وقد جاء فيها ما يأتي :

صحتنا جيدة . وصل ولدنا عبد القادر الى سيدي براني . الاحوال حسنة

علي

وارسل الامير ايضا الى ولده الامير محمد سعيد من زاوية بشارة من اعمال (درنه) كتابا يقول فيه بان الفوز هو حليف المؤمنين وان الخسار في جانب المستعمرين والحقيقة انه رحمه الله لما اطل على درنه مع ولده الامير عبد القادر اسرع اليه الضباط والمجاهدون من العرب يقبلون يديه و يتبركون به فالقى عليهم خطابا حماسيا هز قلوبهم هزا ونال من نفوسهم منالا فلما رأى هذا التحمس وذاك التشوق الى الحرب لم يسعه الا ابداء الاعجاب فارسل الى ولده الامير محمد سعيد البرقية الآتية التي تهللت لها وجوه المسلمين .

عند وصولنا كان الهياج عظيما فالفينا الاهالي في رغبة شديدة الى خوض غمرات الجهاد ونحن في طليعة المحاربين والاحوال جيدة وسنهجم هذا الليل فجأة على الايطاليين

علي

الامير يلطف احزان الجرحى

ولما كان الامير على جانب عظيم من رقـة الشعور ولين العريكة وجمال العاطفة شرع يفتكر حين وصـوله الى الارض الطرابلسية في زيارة مقر الجرحى فيعزي المحتـاج الى تعزية و يلطف من احزان المحزونين من بين اولئك الذين اريقت دماؤهم باسم الغاية الاسلامية المقدسة وفعـلا قام سموه بأ هجس به فزار المستشفيات الخاصة بالهلال الاحمر المصري وجعل يتفقد حالة الجرحى و يشجعهم على احتمال مرارة الجروح بكلام اصفى من الجوهر واطيب من العنبر واعذب من الكوثر فسالت دموعهم من المحاجر لرقته وصفاء لهجته وجمال رنته وكان يقول لهم ان جروحكم لهي دايم الحق اوسمة شرف وفخار ودفاعكم عن حياض الاسلام يورث العدو التقهقر والعار ثم جعل يصافح جريحا اثر جريح وطريحا اثر طريح حتى نسي هؤلاء المعذبون انهم يتألمون و بعد ذلك القى عليهم خطابا قصيرا شكر فيه مساعي الامـة الاسلامية في خدمتها العالم الاسلامي فقال ان المعسكر التركي العربي في هذه الصحاري مديون بواجب عظيم للمصريين ولهذه الجمعية الانسانية .

وانصرف سموه شاخصا الى المستشفيات الباقية فالفى فيها كل نظام وتحسين يبشران بالسعد والرغـد ومن ثم عرج على المعسكرات وتفقد

حالة الجنود والمجاهدين مدة طويلة فسر السرور الذي لا يدرك من حالتهم الروحية الحسنة

الامير يجمع التبرعات للمجاهدين

تدل كلمة الاخاء على ان بين ابناء العنصر الواحد والبلد الواحد رابطة الطف معنى واشد احكاما من رابطة الدفاع عن الوطن وكرامة حقوق الناس لأنها تتكون من علائق تاريخهم المديد وشرف اجدادهم واجتماع مصائبهم واستمساك تضامنهم الذي جمع ملايين من الناس تحت ظل اسرة واحدة فكل فرد من هذا الوطن اخ لابنائه تجب عليه واجبات نحوهم كما تجب عليهم واجبات نحوه

هكذا كان شأن الامير مع مغاربة طرابلس فبصفته مغربيا كان يشعر بانه مدفوع الى نصرة هؤلاء الذين يقاتلون ذبا عن حقوقهم ودفاعا عن شرفهم لانهم منه واليه وهو منهم واليهم

ان اجمل حالة يشعر بها المرء هي ملاطفة قريبه لان هذه الملاطفة كفيلة بصيانة رابطة التضامن والتضامن هو اس الاجتماع ولقد رأى الامير في نفسه ما يدفعه الى العمل فسعى بتأسيس جمعية عظيمة جعلها تحت رئاسته بقصد جمع التبرعات للمجاهدين

وحيث ان الحماسة الاسلامية قد تجلت في هذه الحرب الهائلة فقد

رأى سموه ان يستفيد من هذا الشعور الحلو فنادي في العالم الاسلامي بوجوب اغاثة هؤلاء المجاهدين الذين يعرضون نفوسهم لامطار البارود المتدفقة وسيول النيران المرسلة فتجاوبت اصداء صوته في الهند وجاوه وتونس والجزائر ومراكش وانهالت التبرعات علَى المجاهدين باسم الامير الخطير انهيالا عظيما فتبرع مسلمو الهند بخمسة آلاف ومائة ليرة انكليزية استلمها الامير بنفسه وظلت الاكتتابات التي فتحها في هذا السبيل جارية حتى بلغت مبالغ طائلة فاحشة

فيا ايها النشء المبارك عليك بجمع الاعانات لجريح الوطن فانك تلطف من احزانه وتخفف من اوصابه واشجانه وانك بعملك تكسب وطنك قوة وتزيد فيه حب الثبات فيظل كالجلمود لا يتداعى الى الحضيض

الامير علي والصحف الغربية

نشرت مجلة الايلوستراسيون التي تصدر في باريس للمسيو جورج رايمون مراسلها في ساحة الحرب الطرابلسية مقالا مطولا اتى فيه علَى ذكر مناقب الامير علي رحمه الله وذكر الجهاد الاكبر الذي قام سموه به بالاشتراك مع المجاهدين وقد نشرته الصحف السورية في حينه فنلخصه كما يلي :

الامير علي عثماني النزعة وعلَى هذا المنهج سار اخوته وهو الآن في السادسة والاربعين من عمره ذكي الفؤاد ابي النفس اذا شام خطرا يهدد

امته تراه مندفعا بحماسة غريبة الى درء الخطر ولايطر به في الكون غير ذكر عرب الاندلس الاقدمين الذين كان منهم المنصور زهرة العرب وريحانة اسماعيل وان له تأثيرا هائلا في المثابة

اما حسناته فحدث عنها ولا حرج فقد كان له ولاخيه الامير عمر (رحمه الله) اجمل الايادي على المسيحيين الذين كانوا سنة ١٩١٠ امهددين بالذبح في ضاحية الكرك بجانب القدس الشريف وقد وقف الاميران حيال هذا الامر واوقفا ضرره بفكرة وقادة وذهن مستنير

وذكر رايمون ايضا :

كان الامير علي الذي برح الشام الى سيرتاك قد وصل من سيرت آتيا من بنغازي ليعرج على طرابلس وجل رغبته ان يستنفر القبائل للجهاد و يبعث في قلوبها حاسة الذود عن الوطن الذي يضحي العربي في سبيله كل شيء ما عدا الشرف (١) وقد كان المجاهدون يومئذ ينتظرون بن السلطان عبد القادر بذاهب الصبر فلما اطل عليهم هتفوا له فبلغ هتافهم المسعر عنان السماء فمادت له الارض ورقصت له الخيول كأن بها نشوة من الطرب وما هي الا لحظة حتى وقفوا واخذوا ينظرون الى القفر بقلوب

---

(١) يشير جورج رايمون الى دفاع العرب في الجزائر عن بلادهم زهاء سبعة عشر عاما و يقصد بقوله ايضا عرب مراكش الذين ما انفكوا على جهادهم ضد المستعمرين وهم يضحون في سبيل الدفاع كل شيء ما عدا الشرف

وعيون ومن ثم وقف الجيع حول الامير بانتظام ونكسوا اسلحتهم اجلالا واحتراما وهرع زعماؤهم الى لثم يديه وتقبيل راحتيه وذهب بعضهم الى التبرك بعباءته وآخر الى التبرك بالحصى التي تحت قدميه فكنت اراه يحاول التملص منهم جهد طاقته واخيرا تركهم وانضم الى قبيلة كانت بانتظاره على تل شاهق ثم ما لبث ان عاد مصحوبا بولده الامير عبد القادر (١) وقد تكاثف الزعماء من حوله فوقف ولده الى يساره وحاكم سيرت محمد اغا الى يمينه وكلهم يسرعون الخطى وقد كرروا اطلاق البنادق حتى حكى دويها هزيم الرعد القاصف ولاحت مني التفاتة فرأيت الخيل ترقص لهذا الدوي كما يرقص الجندي على عزف الموسيقى فتمكنت بمساعدة الرفقاء من العرب من اختراق تلك الجماهير المحتشدة ووقفت قبالة الامير ولعمر الحق انني شعرت بتأثير هائل عند مثولي امامه وخيل الي ان دمي جمد في عروقي وان حركات الفؤاد قد وقفت عن الخفقان فلما رآني هش لي وبش واستأنس بقدومي فلم ار بدا اذ ذاك من التمسك باهداب الثبات فطردت الجزع ومددت يدي مصافحا فصافحني وعلى شفتيه بسمة لطيفة اما الامير فطويل القامة بشار بين كتفين وقد تبين لي ان في

---

(١) هو الولد الثاني لصاحب الترجمة رحمه الله وهو من الامراء الفرسان الذين يقتحمون ظلمات المهالك ويسلكون اوعر المسالك في سبيل شرف امرتهم ومجد دينهم وجلال عنصريتهم حفظه الله وابقاه ذخرا

عينيه الوقادتين قوة هائلة عَلَى جذب اعماق النفوس فالتفت الى ولده الامير عبد القادر وشرعت احادثه فبادلني حديثي باللغة الفرنسوية وقال لي اهنئك عَلَى اكتسابك ثقة العرب قلت انني شديد العجب يامولاي قال ممن ؟ قلت انكم تتقدمون الى الامام بجرأة غريبة ولقد اذهلني امر رأيته منكم فان بنادقكم ثابتة عَلَى اكتافكم وبامكانكم ان تطلقوا نارها على العدو وانتم فوق ظهور خيولكم تخوضون غمار الحرب في حين ان جنودنا لا يقدرون عَلَى فعل ذلك الا اذا جثى احدهم عَلَى ركبتيه وامعن نظره بالتصويب قال ان اقوامنا قادرون عَلَى فعل العجائب وفوق ذلك فان هذه عادة الفناها نحن معاشر المسلمين وقد لا تجد من يحسن الرمي واطلاق الرصاص غيرنا وفي تلك الساعة احتشد حول الامير رهط كبير من العرب فلاحظت عَلَى وجوههم امارات المسرة ورأيتهم مختالين بالامير الصغير الا انني وجدت فريقا منهم لا يفارقه الحزن وقد اخذوا ينظرون الى الامير بحنو واشفاق فلم ادر سرا لهذا الشعور الخفي الذي يشعر به اولئك الابطال وقد يتعذر علينا نحن معاشر الغربيين الوقوف عَلَى ما تكنه افئدة العرب الذين آدابهم ليست كادابنا وغرائزهم تنافي غرائزنا وطبائعنا وحيثما نقل الامير خطواته كنت اراهم يتبعونه الى ان استقر عَلَى رابية شاهقة العلو فوقف بينهم خطيبا وقال بصوت جهوري كلمات لم افقه لها معنى وكنت الاحظ التأثير الذي طرأ عَلَى القوم عند تلفظه بتلك الكلمات

ولم افهم مدوى هذه اللفظة المكررة (امين) وهي كلمة كثيرا ما تعقب الادعية الحارة التي يقدمها المسلمون الى الله ثم رأيتهم قد استلوا السيوف وركعوا على الارض تحيط بهم الرهبة واقسموا اليمين عَلَى مثابرة الحرب حتى يقضي الله امرا كان مفعولا و بعد فراغهم من ذلك استدعاني الامير اليه واجلسني على مائدته وطفق يحدثني قائلا — هل يتكلمون عني في فرنسا ؟ وهل يعلمون اني هنا قلت نعم فان الباريسيين خصوصا والفرنسويين عموما يتلذذون بسماع الانباء السارة عن سمركم واعدت عَلَى الامير ذكر ابيه ففاضت عيناه بالدموع وشعرت بخطأي لاني فتحت له جروحا لم تزل لزجة ثم اخرج الامير من جيبه كتابا لا يفارقه ابدا وهو يمثل الوقائع التي فاز بها ابوه على رجالنا وفيه كثير من صور مشاهير القواد الذين حاربوا في الجزائر كالدوق دومال وغيره من بواسل المغاربة ثم قال انها لحرب عظيمة فقد كانت غاية الفريقين شريفة في حد ذاتها ففرنسا كانت تقاتل لدفع الاهانة التي لحقت بسفيرها والعرب كانوا يقاتلون دفاعا عن الوطن المقدس وكان الاعداء مثلنا ابطال بواسل ٠ اه

هذا هو ملخص الحديث الطويل الذي نشره لويد جورج رايمون في مجلة الاليستراسيون الباريسية وهو كما يرى القارئ اعتراف واضح بما للامير رحمه الله من الشخصية الممتازة والاخلاق العالية والصفات النادرة ولا جرم فان الموسيو جورج رايموند الذي كان مراسلا للمجلة في ساحة

الوغى لن يكتب مالا يتفق مع الحقيقة فهو من افاضل الكتاب المشهورين وحسبه انه يكتب في اكبر مجلة في العالم تطبع في كل يوم اربعة ملايين نسخة يطالعها اربعة ملايين من البشر

ولم يقتصر نشر هذه المحامد الغراء والمحاسن الزهراء على جورج ايمون فقط فان الكثيرين من كتاب الافرنسيس والانكليز والالمان قد ذكروا مثل ذلك وفي كتابة المسيو رايمون كولرا صاحب جريدة النيل الفرنسوية وكتابة السير صموئيل لورك مراسل الدايلي نيوز الانكليزية وكتابة والترهرمن مراسل الغازت دي نيس الالمانية ما يفوق الحصر ولولا الظروف المعاكسة التي افقدتنا اعداد هذه الجرائد لبادرنا الى نشر كل ما كتب بحق الذات الموقرة قدس الله سرها على ان ما انشره الان مما يتعلق ببطولة الطبيب الذكر يفي بالواجب فقد كانت كل حياته جهادا في سبيل عظمة الخلافة الاسلامية والجامعة المحمدية التي لا حياة للعالم الاسلامي المنتشر في اقطاع المسكونة بدونها ولا نشور لمجده الا بالتمسك بها فانها الجامعة الوثقى التي تنادي بالمسلم العربي الى اشد وثاق المحبة مع اخيه الهندي والصيني والجاري والكردي وغير ذلك من بقية شعوب الاسلام وقد برهن الماضي على ان تفرق كلمة المسلمين مما هو الباعث على هذا التدني الحاضر ولولاه ما تجرأ العدو على التعرض لنا ولو ببعض الاذى ولولاه ما لقينا الذل صنوفا والاسترقاق المر اشكالا والاضطهاد انواعا

دعوة الامير الى الجهاد

المقدس ومنشوره في المغاربة

ان الحقيقة القصوى في حياة المرء هي الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات وبالاختصار هي الكفر والكفر عقوبة هائلة للنفس على ان الامير رحمه الله تعالى قد سلك غير هذا المسلك الذي اعتاده الكثيرون فلم تشغله عبادة الماديات ولا عبادة المال فقد كان يعتقد بان الماديات انما هي واسطة تجريد الانسان من كل شيء حتى من راحة الضمير ونقاء السريرة وصفاء الحال والبال وقد كان كما ذكرنا في الفصول السالفة ولوعا بايمانه ومعتقده وكان يرى الايمان صنيع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ترى به حقيقة الاشياء لذلك رأيناه قد اتخذ اليقين في الحرب الايجابية اساس الاعماله ومبدأ بنى عليه اسس آماله وقد كان في الغالب يقول ان عبادة الماديات تقرح كبد الدنيا وتقطع اواصر الحياة وتدعو الى استغلال نهب الاموال واهمال الواجبات وسلب الخيرات وعدم ايفاء الحقوق واصلاح الشؤون وان المتمسكين بهذه العقيدة الفاسدة لا يرى الناس عندهم الا قولا بلا عمل ونطقا بلا فعل وشقشقة هادرة وهمما فاترة والسنة خالية وقلوبا كاذبة وافئدة كالصخر او اقسى وان كانوا يعتقدون ان الغش والنفاق والكذب هي من عناصر الحق التي لا يقوم الا بها ، هذه هي خلاصة

اراءه في الشك واليقين واننا لو سألنا كافرا ملحدا يرجح عبادة الماديات على عبادة الايمان ان يقوم بالدعوة الى الجهاد المقدس في شعب مؤمن قوي جموح كشعب المغاربة افكان يمكنه ان يقوم بذلك ؟ وهل هو اذا قام يستطيع ان يؤثر على المجاهدين ؟ والى من يدعوهم من اجل المجاهدة ؟ أالى الاله المادي وهو اذا فعل ذلك مزقوه وقطعوه ؟ ام ينادي فيهم بمبادئ الفلسفة الجاحدة وهذه تقتل الحال الروحية ولا تؤثر على اخلاق شعب يفكر بالدين في ساعات فراغه وساعات عمله ، في ليله ونهاره ، وفي كل لحظات الحياة ، فيجب الاقرار بالحقائق فان شخصا غير ذات الامير المقدس لا يمكنه بصورة من الصور ان يقوم بدعوة الجهاد في طرابلس الغرب ولا يستطيع ان ينطق بكلمة ما من اراءه ومباديه . اول ما فكر به الامير من العمل الصالح منشور نشره على المجاهدين يدعوهم فيه الى الثبات الى النهاية

وقد احدث المنشور تأثيرا عظيما بعث روحا حماسية هائلة كانت سببا قويا في حمل المغاربة على الايتاليين مرارا متعددة والحاق الاذى والنكال بهم ولكي لا تفوت هذه النشرة التاريخية القراء ننشر لهم ما جاء فيها على الصورة الاتية قال الامير رحمه الله في منشوره

سلام الله عليكم يا اهالي طرابلس الغرب و بنغازي وطبرق وماتاخمها من البلدان

و بعد فان عليكم ان تصمدوا للعدو وتقفوا امامه موقف الثبات فانما هو يريد باغارته على هذه المواطن ان يستولي عليها وان يعتدي على حقوق خلافة المسلمين المقدسة حتى يجعلكم في استرقاق مر واستعباد مذيب و يجعلكم عبيدا وخدما وحشما له ويستخدمكم في حروبه وغزواته و يستهزء بكم و بعبادتكم ودينكم وفيكم السادة الاشراف والامراء والاعيان وان بينكم من ينتسب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفوق ذلك فهو لا يدع مسجدا ولا زاوية ولا وقفا ولا محلا يذكر فيه اسم الله واسم رسوله الا و يركز فوقه علم الصليب كما فعل في مصلاكم ومسجدكم حيث رفع عليه رايته الصليبية وقتل الالوف من الابرياء واباح هتك اعراض النساء ومثل بالاطفال اشنع تمثيل ونكل بالشيوخ افظع تنكيل فاي حق من الحقوق يدعوه الى تخريب منازلنا و بيوتنا وقتل صغارنا بصورة تقشعر منها الجلود و ينفطر لها قلب الجلمود فهل ترضون ايها المسلمون بهذا الخسف والتعذيب وهل تسكتون عن القتل والتخريب كلا فانتم لا ترتاحون الى هذا العار والشنار ولا تقبلون ان يبيعكم هؤلاء بيع الجوار فشجاعتكم موفورة و بسالتكم مشهورة واجدادكم كرام ، واباؤكم عظام ، وسيوفكم حداد ، وهذا التراب المقدس الذي تدوسون حضيضه مجبول بنجيع الاباء الاحمر و بدمهم الذكي الاطهر فاسعوا الى نصرة الشريعة وطهروا هذه البلاد البديعة بهمة علية وعزة محمدية ولا تدعوا للمستعمرين مجالا فتصبحون في حال مبيء و يصبح

دينكم لعبا وهزوا ويخرجكم العدو من دياركم فقاتلوا وصابروا في سبيل الله وسبيل خليفته

ومنشور المرحوم طويل جدا كنا نرغب ان ننشره برمته لولا ضيق المقام هذا ولا حاجة الى ذكر النتائج التي تلت هذا المنشور العظيم فان الذين طالعوا الصحف في ذلك الحين قد ادركوا استبسال المغاربة في ذودهم عن بلادهم وكيف ان ايطاليا العظيمة ذات الجيوش الجرارة المسلحة بالطيارات والسيارات والمدافع والاساطيل والمخربات والمدمرات والعلم والنبوغ والذكاء والاختراع والابداع قد عجزت عن ان تنال مطلبها او تدرك ما رامت من هؤلاء المجاهدين الذين قل عددهم ونضب معين السلاح من بينهم وكثر جوعهم وفقرهم فلا يملكون مالا ولا سلاحا بل كل ما يقاتلون به انما هو ايمان ويقين وصبر عظيم والله مع الصابرين .

ماذكره الامير في رسائله عن المواقع

نشرت الصحف المصرية والسورية والاوربية كثيراً من الرسائل الخاصة التي ارسلها الامير علي عن الوقائع الحربية وقد اطلع الناس عليها في حينها فلم نر بداً من ذكر بعضها بصورة موجزة دلالة عَلَى فضل الامير وشدة سهره عَلَى الصالح الاسلامي العام وحبه لنصرة دولة الخلافة الاسلامية ذكر رحمه الله في رسالة نشرت في جريدة الرأي العام ما يأتي :

مكثنا في بنغازي نحو الشهر على امل فتحها عند هبوب العواصف في البحر وقد ابت الاقدار الا ان يذوق الايطاليون انواع الذل والهوان تحت ضيق الحصار لان هجومنا عَلَى مواقعهم المحكمة قد فت في سواعدهم ولولا كثافة قوتهم البحرية لسهل علينا طردهم وابعادهم فان المغاربة عَلَى جانب عظيم من البسالة ولطالما هجموا على الحصون المنيعة التي تحصن العدو وراءها لا يجسر عَلَى مفارقتها من رعبه وذهوله وذكر الامير ايضاً في رسالة اخرى ما ملخصه :

ان اهم وظيفة لديّ في كل يوم هي القاء النصائح والارشادات وتحميس المجاهدين بما اسرده عَلَى اسماعهم من اقوال السلف الصالح وقد جعلتهم يفهمون حقيقة ما يضمره العدو وفي اليوم السادس والعشرين من شهر مايس ١٩١١ هجم الايطاليون عَلَى موقع السيد عبد الجليل الواقع عَلَى سيف

البحر الى الجانب من ضاحية الساحل في زنزور وكان عددهم يزيد عَلَى عشرة آلاف محارب بعضهم الزنوج واليهود فشرعوا يطلقون القنابل من المدافع والمدرعات البحرية والطيارات المحلقة في الجو والفضاء حتى اصبحت الارض بركانا يقذف الحمم وحتى اصبحت السماء جحيما ناره لا تخمد ولهيبه لا يهمد وكان عدد المجاهدين لا يزيد عن الالفين فدافعوا باسلاميتهم دفاع الشرف والمجد وجالدوا مجالدة عظيمة غير مبالين بهذه الجرجرة التي تحدثها الطيارات من فوق روؤسهم حتى نضب معين السلاح من بين ايديهم واستشهد منهم في هذه المعركة التي اشتركت فيها كل القوي سواء في الغبراء والسماء والدأماء مائة محارب وجرح مائة وخمسون وهلك من الاعداء اكثر من الفين وجرح الف وانتهت المعركة بان اركن هؤلاء الى الفرار تاركين ورائهم اعتاداً حربية وذخائر قيمة ومغانم كبيرة وارباحاً وفيرة وذكر رحمه في رسالة ثالثة ما ملخصه :

وزع القائد الايتالي كعادته كثيراً من المنشورات عَلَى روؤساء القبائل يحضهم فيها عَلَى الطاعة والتسليم ويعدهم بها الوعود الطويلة العريضة اذا اجابوه الى طلبه واعلنوا خضوعهم متعهدا لهم بالمحافظة على قواعدهم الدينية وصيانة اعراضهم واملاكهم ولكنهم قابلوها باحتقار وفي طريقي الى بنغازي صادفت رجلا مغربيا متقلدا سلاحا قال لي ان له ولدا وحيدا جاهد فاستشهد وان اخرته وامه يبكونه فقلت له ان جلالة السلطان الاعظم

والخليفة الاكرم سيعوض عليك بان يجعل لك راتباً شهرياً عظيماً فاجابني لست في حاجة الى راتب ولكنني ما زلت حائراً في امري فان ولدي قتل وقد تسألني زوجتي عنه فماذا اجيبها قلت قل لها انه يسكن جنات الله في اعلى سماءه بين ملائكته واوليائه وانه حي يرزق لا ميت هالك فرأيته قد طرب لهذا الكلام وانتعش ورأيته يسرع في ركضه ضاحكاً مستبشراً ليقص علَى زوجته وبنيه حديثي ·

الهلال الاحمر المصري والامير

ذكرنا بصورة مطولة اعمال الامير في ساحات الحرب في القطعة الطرابلسية وتأثيره في المجاهدين والحقيقة ان الاهالي والمجاهدين معاً قد انتعشوا به الانتعاش الجم وعولوا علَى ان يسفكوا آخر نقطة من دمائهم سعياً وراء اعزاز الخلافة الاسلامية لان الامير قد تمكن من غرس حب الخلافة في نفوسهم بطريقة ساحرة غريبة وحيث اننا ذكرنا اكثر مايتعلق بالوقائع والخطب فيجمل بنا ان نذكر شيئاً عن خدماته لجمعية الهلال الاحمر ·

ارسلت جمعية الهلال الاحمر المصري رسالة الى الامير رحمه الله تطلب اليه ان يحضر حفلة افتتاح فرع لها في احدى المدن الطرابلسية فلبي رحمه الله طلبها واسرع مع نجله الامير الكريم عبد القادر حرسه الله تعالى وحين اشرفا علَى نادي الجمعية قوبلا بالاحتفال العظيم وكانت الجموع اذ ذاك غفيرة

تفوق العد والحصر وبعد اقامة الاحتفال قام الامير والقى خطابا مطولا اتى فيه عَلَى ذكر خدمات الشعب المصري للدولة الاسلامية وللعالم الاسلامي وكل يعلم ان هذه الجمعية الموقرة قد اقامت في طبرق وبنغازي ودرنه المستشفيات اللازمة وخصصت لها الاطباء الوطنيين الغيورين وجاءت بالادوات والمهمات والعلاجات وجميع ما يحتاج اليه وتعهدت بايصال النجدات عَلَى ظهور الابل عَلَى بعد المسافة والمرحلة واعترافا بجميلها الذي لا يجحد احب الامير ان يذكر في خطابه اهالي القطر الطرابلسي بهذا الصنيع الحسن وهاك بعض ما جاء في خطابه الممتع الطويل :

انظروا يارعاكم الله الى هذا العمل المقدس والى هذه البعثة المحترمة التي هجرت اوطانها وتركت اولادها وعائلاتها حبا بخدمتكم وابتغاء لمرضاة الله فالجريح والمريض يأويان الى هذا المحل المبارك ويجدان فيه عدا اسباب الراحة طبيبا شفيقا وخدمة حسنة وهي عَلَى مانشاهده بغاية الانتظام فلتسر قلوبنا باخواننا وتقر عيوننا بمساعدتهم . ثم قال :

ان التاريخ العادل لابد له من ان يسجل في صفحاته هذه المنقبة المصرية الطاهرة التي هي ولا شك جزوٌ من اجزاء الاخوة الاسلامية التي نسعى كلنا الى شد ازرها ببذل النفس والنفيس وانا بالنيابة عن مشايخ السنوسية ومجاهدي هذا القطر وزعمائه وامرائه وضباطه وقواده اشكركم يامن تذيبون مهجكم وتريقون دماءكم في سبيل اسعاد العالم الاسلامي .

وخطاب الامير على هذا الطراز مكلل بالدر ومرصع بجواهر المعاني والحكم رحمه الله .

ذكر موقعة حضرها الامير بنفسه

نشرت جريدة الاهرام تفصيل المعركة التي حدثت في ٢٨ كانون اول ١٩١١ وقد كان سمو الامير قدس سره قد شارفها بنفسه قالت الجريدة المذكورة :

تلك معركة كان البادي في اثارة عجاجها الطليان فقد اضطروا الى الخروج لفتح مجاري المياه التي سدها العرب عليهم وقطعوها عنهم فخرجوا الى مسافة اربعة كيلو مترات عن حصونهم في المدينة وتقدم الامير علي بقوة مؤلفة من الف مقاتل لمصادمتهم فلما وصلت القوة الى دائرة مرمى المدافع انفجرت نيران الطليان من كل صوب على تلك القوة التي حصرت في دائرة مساحتها نصف كيلو متر تقريباً وكان الامير عبد القادر مرافقا لابيه في كل موقعة فاستمر اطلاق القنابل والرصاص كهاطل المطر بلا انقطاع مدة نصف ساعة شعرت فيها القوة المجاهدة بضعف شديد وقد قال الامير عبد القادر عند هذه النقطة :

وقد كنت في تلك الشدة الاحظ الرفاق فارى عليهم علائم الصبر الشديد ولكني كنت افكر في نفسي فيما كنت اسمعه من قبل بان العرب

مهما اشتدت شجاعتهم لايستطيعون الوقوف في وجه جيش اوربي تعضده القذائف النارية والمدافع الهائلة والاساطيل الرهيبة ولكنني ما لبثت ان عدلت عن هذه الفكرة ورأيت ان الشجاعة لها حقها رغم الفنون الحربية فان العرب الباقين لما رأوا ما نحن فيه من الضيق اطبقوا على الطليان من جهة اخرى فقطعوا نارهم عنا وقد التحمت جنودنا وجنودهم في معارك حدثت جسداً لجسد حتى امتلأت الخنادق بجثث العدو وكان والدي يدير رحى المعركة بنفسه وقد انتهت بظفرنا الظفر القطعي واحراز الغنائم الوفيرة .

فالقارئ يرى من ذكر هذه الموقعة ان الامير رضي الله عنه لم يكن فقط رسولا يحمل البرء للجرحى ولا داعياً الى الجهاد ولا محرضاً على الجامعة الاسلامية بل كان ايضا قائدا ماهرا بادارة الحرب الضروس فيا ايها النشء خذ مثال العيش الكبير من هذه النفس الكبيرة .

الجامعة السنوسية والامير

ان الشرقيين والغربيين مجمعون على ان لعائلة السلطان ساكن الجنان عبد القادر الجزائري نفوذا في سائر افريقيا الشمالية وان هذا النفوذ راسخ حتي في شغاف الصحراء واحشائها حيث تنزوي الزوايا السنوسية التي تحذر اوربا حركتها وتعصبها الديني ومهما كان لسيدي الشريف احمد السنوسي من قوة النفوذ في شمال افريقيا فان نفوذ امير من امراء العائلة القادرية يعلوه حتي انه يمكننا ان نقول بان هذه العائلة الكريمة تؤثر تأثيراً خاصاً على حركات واعمال وآراء السيد الشريف السنوسي بنفسه وماذلك الا لان مقام هذه العائلة في الديانة الاسلامية مقام رفيع فقد خرج منها الامراء المجاهدون والآباء العاملون الذين نشروا اعلام مجدهم في مراكش وبسطوا رايات سؤددهم مابين تونس والجزائر وطرابلس الغرب فلا عجب اذا كان السنوسيون في طليعة اهالي افريقيا ينظرون اليهم نظر الاجلال والتقديس ولهم مالهم من الشرف والرعاية في الاسلام ٠

ان السنوسية في افريقيا عقيدة اسلامية مبدأوها الاسمي ملاشاة كل من هو خارج عن الدائرة الاسلامية والجامعة المحمدية ومسلكها محاربة الاغيار الذين تسربوا ويتسربون الى افريقيا من حين الى آخر وللسنوسية في الصحراء الممتدة من سفوح جبال الاطلس المراكشية الى اقصى صحراء تونس

والجزائر وطرابلس الغرب زوايا كثيرة وجامعات عديدة وفيرة تسعى في السر والخفاء الى التبشير بان مهديا من سلالة الرسول لا بد ان يشرق نوره في جو افريقيا فيخلص الاقطاع المغربية من اسارة الفرنجة و ينشر الراية الاسلامية بعد ان يطرد الاعداء الى سيف البحر فيفرون الى بلادهم وقد ضاق ذرعهم وعيل صبرهم قانطين من كل امل ورحمة (١) وهذه الفكرة قد احيت في نفوس

---

(١) كتب الدكتور ف ، كستوي الفرنسوي في كتابه الجزائر عن هذه العقيدة التي يبشر بها السنوسيون في ارجاء افريقيا الشمالية فصولا خطيرة رائعة ننقل بعض ماجاء فيها على الصورة الآتية :

منذ سنوات ذهبت مع احد قواد فرانسا الكبار الذين امتزجوا بمسلمي افريقيا وعرفوا مطويانهم وخفاياهم ورغائبهم وما يهجسون به من الامال والاحلام الى زيارة احد كبار مسلمي تونس ممن يعتنقون الفكرة السنوسية و يقولون بها فجري بيننا حديث عن المسألتين التونسية والجزائرية ثم تطرقنا الى غير هذا البحث وجعلنا نتمحص مبادئ السنوسيين وافكارهم وفي اثناء ذلك التفت الينا ذلك السيد المسلم وهو من رجال النفوذ في تونس وقال :

انكم تحتلون تونس والجزائر بارادة الله ولكن ايامكم في هذين القطرين اصبحت معدودة ، وكل الذين اغاروا قبلكم على هذه الاقاليم قد عادوا فتركوها خاسرين بعد ان اقاموا تحت اجوائها ازمنة متطاولة ولا ريب بانكم تعلمون علم اليقين بان الرومانيين والفانداليين واليونانيين والاسبانيين وغيرهم كانوا يحتلون هذه الارباض فلما حانت ساعتهم تركوها . اما انتم فقد يطيل امد احتلالكم لان قوتكم عظيمة ولان الله هو الذي يريد ولكنكم ستتخلون عن هذه البلاد كما تخلى السالفون . انكم على خطأ مبين اذا كنتم تتوهمون بان المسلمين في افريقيا يرتاحون الى الاستظلال تحت حماية دول النصارى ومع ذلك فهم لا يفتحون عليكم حربا لانهم ضعفاء ولانهم يعتقدون

الافر يقيين الامل بالرجوع الى سابق العهد وقديم المجد فباتوا يجاهرون بهذه العقيدة بدون خوف او حذر وقد ادرك المحتلون هذا الامر فاوجسوا منه خيفة واصبحت قلوبهم لا ترتاح الا بالقضاء على السنوسيين ومنذ ذلك الحين تسربت في ادمغتهم فكرة محاربتهم فحاربوهم مرات متعدده وكان النصر بها في الغالب الى جانب السنوسيين حتى استظهر الفرنجة في النهاية عليهم وغلبوهم على امرهم وقد كان المحتلون يرجون من ذلك خنق فكرتهم فطاشت احلامهم ونبت سهامهم فان السنوسيين عادوا بقوه اوضح واجلى وركزوا اعلامهم في بطون صحراء البقعة الطرابلسية بعد ان انشأوا في الجزائر ومراكش وتونس فروعاً سرية لزواياهم الهائلة واخذوا يعملون من تحت الستار على انماء فكرتهم والسنوسيون اقوياء متعصبون يقطعون الصحراء حفاة عراة للتبشير بعقيدتهم ولولاهم لاضمحل الدين الاسلامي في افريقيا امام قوى المحتلين وكنائسهم و بيعهم وجمعيات التبشير الخاصة بهم.

فلما اغارت ايطاليا على طرابلس الغرب ادرك هؤلاء ان القصد من هذه الاغارة انما هو القضاء على الاسلام وانهم بالطبع مقصودون بالعداء وفكروا بالخطر الذي ينتجه تخاذلهم امام العدو فرفعوا عقيرتهم للجهاد

- بانكم اقوياء ولكن ذلك لا يمنعهم من التبشير بفكرة طردكم مستعينين على ذلك بقوة السنوسيه التي ستطهر البلاد من رجسكم . انصح لكم ان تبقوا اقوياء فان العرب اذا احسوا بضعفكم فانهم لا يتأخرون عن الحاق الاذى بكم و يقاتلونكم بكل الوسائل والوسائط و يلقون بجثثكم الى مهاوي اللجج الظلماء . الى هنا انتهى حديثه ..

المقدس وكانوا اول من تقدم الى نصرة الخلافة ونجدتها وما ذلك الا لكي لا يجعلوا للعدو الرهيب سبيلا يتمكن به من تدمير زواياهم وتخريب جامعتهم والفضل في ثبات الجنود العثمانية والاهالي بازاء العدو يرجع اليهم ٠

ولما شعر السنوسيون بان الامير رحمه الله قد هبط عليهم اسرعوا اليه افواجاً افواجاً يهتدون بهديه و يتبركون به وخرج الى ملاقاته السيد الاعظم الشريف احمد السنوسي الاكبر زعيم الطريقة السنوسية الذي يخشاه المحتلون في كل الاقطار المغربية وذكر الامير قدس الله سره شيئاً كثيراً عن اجتماعه بالسيد السنوسي واهم ماذكره بهذا الشأن انه بعد ان تقرر الاجتماع بينه و بين السنوسي الاعظم وصل الى قضاء المرج فاخبره السيد عبد المعطي الهادي نائب القضاء انه يوجد رجل من دراويش السنوسية معتكف في محل لم يخرج منه منذ سبع سنوات وانه كان يقول قبل وقوع الحرب (جاء الولي عبد القادر) ثم اصبح يقول (جاء الولي علي بن المولى عبد القادر) وكان الناس يرجون من قوله هذا حدوث الخوارق والمعجزات لاشتهاره بصنع الكرامات فلما شخص الامير رحمه الله اليه طرق الباب عليه و بدون ان يرى صورة الطيب الذكر عرفه وقال أأنت علي قال رحمه الله نعم انا هو فاسرع الرجل وفتح الباب واكب على قدمي الامير مصرحاً بان افريقيا الشمالية ستتخلص عما قريب على يد واحد من اسرة عبد القادر٠اه

لم نذكر هذه القصة الا لنصور اعتقاد السنوسيين وآرائهم بعائلة السلطان

اما الان فيجمل بنا ان نرجع الى الكلام السابق فانه بعد ان تقرر وقوع الاجتماع بين السيدين العظيمين الامير والشريف السنوسي امرعت قبائل المغاربة من كل حدب وصوب و بينهم مشايخ عشيرة العقروالهماملة وعشائر سرت ومصراطه والبادلة والمراوغة والعهرة وغيرهاثم حضر السيد السنوسي الاكبر بجموعه فتصافح العظيمان الامير والسيد في تلك البرهة التاريخية التي هي من اكبر عوامل الاتحاد الاسلامي فتليت القصائد والاناشيد ترحيباً بعالي الاسلام وفي خلال هذه الحفلة القى السنوسي الكبير خطابا عظيما في الاتحاد الاسلامي وجمع المسلمين وتوحيد كلمتهم ثم اشار الى فضائل آل السلطان عبد القادر ذاكراً خدماتهم في تأييد الاسلام واعلاء مناره ولقد طار ذكر هذه الحفلة الشهيرة والاجتماع التاريخي في ارجاء اوربا وانحائها فكتبت الصحف بشأنه المقالات المطولة ورفعت صوتها منادية بالخطر الاسلامي الذي يمثله الشيخ الشريف السنوسي الاكبر ولم تكتم استيائها وحنقها من الامير رحمه الله حتى ان جريدة الطان الباريسية نشرت حديثاً هاماً دار بين احد محرريها والكولونيل (مونتاي) الشهير وقد عربت هذا الحديث جريدة العلم المصرية لسان حال الشعب المصري وهاك الصورة :

انكم لاتجهلون انه يوجد في جنوب طرابلس جماعة قوية متعلقة بالدين الاسلامي تعلقاً شديداً تدعي انها من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم وهي

جماعة السنوسيين التي نشرت الاسلام حتى في اعماق وداي وشواطئ بحيرة تشاد وكان هؤلاء يكرهون حكومة آل عثمان ولكنهم تقربوا منها بفضل التعليم الغربي وقد علمت من مصدر وثيق ان حكومة تركيا الفتاة اتفقت مع المهدي السنوسي الذي يرسل الدعوات من مركزه الى الصحراء وينادي بالجهاد الديني، ويمكنني ان اقول ان الذي سعى في الاتفاق الحاصل بين تركيا والسنوسي هو رجل من ذوي المكانة بين العرب والاتراك وهو الامير علي الجزائري نجل السلطان الكبير عبد القادر الذي ترك مقره في دمشق من اجل هذا الشأن وختم الكولونيل حديثه قائلا :

هذه امور اذا لم يتدبرها الطليان ستؤدي بهم الى احرج المواقف ·

يرى القارئ من مقال الكولونيل مونتاي ان المهمة التي قام بها الامير رحمه الله لدى السنوسي كانت في نظر الغربيين مخيفة جداً وان هؤلاء يتمنون لولم تحدث هذه الحركة التي كانت نتيجتها تقريب السنوسيين من المملكة العثمانية بعد ان كانوا لايعتنون بما يحدث فيها ولا يهتمون بالارتباط معها ·

ولقد عرف كثيرون غير الكولونيل مونتاي بان الفضل في توثيق عرى الاتحاد بين السنوسيين والعثمانيين يرجع الى طيب الذكر رحمه الله وفي ماسننشره من رسائل الملوك والامراء التي ارسلت الى الامير قدس سره اعتراف كبير بخدماته للعرش الاسلامي والامة الاسلامية ·

الصلح

بينا كانت انظار العالم الاسلامي شاخصة الى ساحة القتال في طرابلس الغرب مترقبة جلاء الايتاليين عنها بعد عجزهم عن فتحها بقوة جيوشهم الجرارة واساطيلهم المعظمة اذ بحادث جلل قد وقع فادمى قلوب المسلمين واثخنها جراحاً وهذا الحادث هو عقد الصلح بين ايتاليا والدولة العلية على قاعدة غريبة يذكر صورها قراء الجرائد والمجلات على ان الدولة لم تضطر الى هذا الصلح الا بسبب انتقاض الدول البلقانية عليها واغارتها على املاكها في البلقان فاجبرت على توقيع معاهدة لوزان القاضية بترك طرابلس الغرب لايتاليا تفرغا لحماية املاكها في البلقان وقد اقامت في طرابلس نائبا لها وفي الوقت نفسه نشرت منشوراً ذكرت فيه منحها الاستقلال لاهالي طرابلس ونشرت ايتاليا منشوراً آخر يقول بامتلاكها تلك المقاطعة الاسلامية ولما لم يعد للامير من عمل في دار الحرب عول على تركها بعدان قام بواجب ضميره خير قيام على ان كل ذلك لم يضعف همة المجاهدين في الذود فظلوا على دفاعهم الشريف ضد ايتاليا وظلت آمالهم متجهة الى الاستقلال الذي تسفح الشعوب الحرة دماءها في سبيله وقبل ان يغادر الامير طرابلس الى البلاد التونسية زار كل ضواحي القطر مودعا الابطال والمجاهدين واشراف السادة السنوسية وحين اشرافه على الاقطاع الساحلية التي يحتلها الايتاليون

في طرابلس احتفل به المحتلون احتفالا عظيما واطلقوا عند وصوله المدافع وقاموا بمظاهر الزينة وادب له والي الولاية المشير اوتاو يورانتي مأدبة خاصة حضرها الفريق ديشوران واميرالاواء جانجيو وسعادة حسن باشا رئيس البلدية ووكيل الوالي ميز بنجز واحمد بك المنتصر وفرهاد بك وكثيرون من رجال اركان حربية ايتاليا وتبودلت الخطب في اثناء ذلك بين المارشال اوتاو يورانتي وسمو المحتفل به رحمه الله وقد تلا الماريشال خطابه بصوت جهوري وهاك ترجمته الحرفية :

قبل كل شيء يجدر بنا ان نقدم شكرنا لسمو الامير علي المحترم لاجابته دعوتنا هذه في طرابلس المحروسة واننا لا نغالي اذا قلنا باننا ادركنا شرفا عاليا بالاحتفاء بضيف هو سليل السلطان عبد القادر البطل الاشهر الذي كان اكرم عدو بازاء من ناجزه وقاتله واخلص صديق لمن سالمه على ان الذي اكسب هذه المأدبة رونقا وشرفا وجمالا هو استتباب الامن والسكينة وقد اصبح كل منا يبذل جهده في توطيد الهدو والامن وارجاعهما الى نصابهما سعيا وراء انجاح هذا القطر واسعاده. ان هذه الزيارة سوف تغدو سعيدة ميمونة وعساها تنتج الراحة والطمأنينة . ان وطننا العزيز سيشرع في اقرب مدة بتلافي اضرار هذه الحرب التي وضعت اوزارها بعد ان طال عهدها وستقوم بتوسيع نطاق الثروة في هذه البلاد واننا مجمعون كلنا على ضرورة الاسراع في هذا العمل حتى نفتدي هذا القطر القديم وان لنا الثقة التامة

بان العرق العربي الشريف الذي كادت اثار تمدنه العظيم السالف الاتزول في اقطاع اوروبا سيساعدنا في هذا الاجتهاد الذي هو نتيجة خلوصنا وحبنا لخير هذه الديار الجميلة واذ انتهى المارشال من خطابه نهض الامير قدس سره واجابه بخطاب بليغ شكره فيه على اطرائه عائلة ساكن الجنان السيد الكبير رضي الله عنه ثم انصرف الى ذكر امور شتى ومسائل عديدة والى القارئ اهم ما في ذلك الخطاب الممتع ٠

ان الغاية التي اطلبها الى سعادة المارشال هي مساعدة الاهالي المساعدة العظيمة في حفظ شرائعهم وعقائدهم وعاداتهم لان الوفاء بالعهد يؤدي الى الراحة الابدية وضمانة السعادة وعسى ان الحكومة الايتالية بعد ان اتفقت مع دولة الخلافة ان تساعد حكومتنا في شؤونها ورغائبها ومقاصدها وان تصون حقوق شعبها الاسلامي لان ذلك مما يوطد الامن في داخلية بلادها ويفضي بها الى السعادة الحقيقية ٠

هذه هي خلاصة خطابه ذكرناها بصفتها حادثاً تاريخياً ولقد برح سموه طرابلس الغرب على احدى البوارج الحربية الايتالية قاصداً تونس بعد ان اطلق الايتاليون مدافع بوارجهم وسفنهم الراسية في الميناء تكريماً وتعظيما

الامير في تونس

نشرت مجلة افريقيا الشمالية المصورة التي تصدر باللغة الافرنسية مقالا ممتعا بمناسبة وجود الامير في تونس نترجمه ليطلع القراء عليه قالت المجلة تحت عنوان الامير علي :

مع السرور ننشر بين اعمدة مجلتنا حديثا لرصيفنا المسيو ارمان سيولي دار بينه وبين الامير علي قال الرصيف :

ان الرجل الذي نبش له ونحيبه تحية الود ، يمثل اكرم واجمل وجه في العرب بل في العالم الاسلامي بامره · ولقد رأيته عظيما خطيرا بعينين براقتين عليه امارات تظهر بها الارادة والصلابة والزعامة النجابة ولا يوجد اجمل اوارق خلال الرجل الذي هو ضيف تونس ونزيلها اليوم ، ولنزيد القراء تعريفا به نقول انه علي ابن الامير عبد القادر

سأثناء الحديث عن رحلته فهش وبش ولم يتردد عن اظهار ارتياحه الى هذا الامر وفيما يلي من السطور ننشر حديثه

لما دخلت الحجرة التي اسرعت في ولوجها لالتحاق بـ ... لبل تلك العائلة الكبيرة الذي تنعكس على ملامحه الوسيمة ومظاهره الكريمة كل صفات العرق العربي الفيته محوطا باعيان اهالي قسنطينة واكابر الايالة الذين اسرعوا اليه من كل فج عميق للاعراب له عن احتفائهم به والسلام عليه وفي تلك البرهة

اخذنا باسباب الاحاديث وكان المترجم بيننا السيد بن درويش نجل قاضي قسطنطينة وتمكنا اخيراً من الاحاطة بما رجع بالفائدة العظيمة على القارئات والقارئين ·

بعد مبادلة السلام الصميمي لم يتردد الامير عن اعطائنا تفاصيل مكوثه في طرابلس الغرب وجليل العمل الذي قام به وقد قال ·

في بداية الحرب الايطالية التركية برحت دمشق مقري ومعتكفي واتيت مدينة سالونيك حيث رحبت بي جمعية الاتحاد والترقي ترحيباً جما وحضرت موتمرها الذي عقدته ثم تركت المدينة الى الاستانة وحظوت بمقابلة جلالة السلطان الذي بعد ان ادرك رغائب وزرائه وآمالهم من تكليفي بالذهاب الى دار القتال سألني حسن الدفاع في طرابلس الغرب وقد مكثت لديه اكثر من نصف ساعة وقلت لجلالته انني سأغادر العاصمة الى طرابلس الغرب لاظهر ارادتكم المقدسة لان اظهار هذه الارادة يوليني شرفاً عظيما ولكن اسمح لي ياذا العظمة ان اوصيك بعائلتي فعسى كم ترفعون حمايتكم فوق رأسها اذا اقبل الاجل المتاح فوعدني محمد الخامس بالسهر على مصالح العائلة واهداني ساعة من الذهب ثمينة لتكون من جلالته تذكارا لدي ·

و بنوع من الوداعة والهدو قص علينا سموه خبر الوقائع التي اشترك بها شاهرا سيفه بيده في ضواحي درنة وطبرق والجبل الاخضر و بنغازي وغير ذلك من الحوالي والاقطاع واطرى شجاعة الاهالي الذين صدوا العدو حفاة

عراة وذكر ان في الصفوف التي تقاتل ضد الايتاليين الذين لايجرأون على الخروج الى ما وراء الساحل متطرعة جمة العدد من الجزائريين والتونسيين والسنوسيين الذين يقاتلون بكل بسالة ومهارة وقال ان العرب كانوا قد ازمعوا على مقاتلة الايتاليين حتى النهاية ولكنهم توقفوا عن عزمهم لان تبدل الاحوال الجأهم الى ترك السلاح وفوق ذلك فهم لايستطيعون ان ينبذوا ارادة جلالة السلطان ظهريا ولولا نشوب الحرب البلقانية التي تهيب بتركيا الى اعداد المال والرجال لما كان تسنى للايتاليين ان يبلغوا شبراً من الاراضي الطرابلسية فان الدولة العثمانية تحذر ان ينضم الاسطول الايتالي الى قوى المتحاربين في البلقان ولذلك تقوى خوفها على شواطئها وموانيها الاسيوية وعلى جزرها في بحر ايجه على ان الجيش التركي العربي على رغم من احتياجه الى السلاح وشدة افتقاره الى قوى تعضده قد تمكن من القيام بواجبه ببسالة وشجاعة اعترف العدو بهما ·

وقد قص سموه علينا خبر احتفاء الجنرال تازوني به واكرامه اياه ومما قاله ان الايتاليين لما علموا انه ابن السلطان عبد القادر احنوا رؤسهم احتراما وطأطؤها اكراما ثم ذكر سموه المأدبة الشائقة التي ادبها الحاكم الايتالي وحفاوة الضباط والامراء الايتاليين وتطرق الى ذكر مغادرته طرابلس على بارجة حربية ايتالية دخل بها ميناء صفاقس ومنها بلغ تونس وقد قال الامير انني سررت جد السرور من المقابلة الودية التي قابلتني بها حكومة

سمو باي تونس ومن مجاملة الفرنسويين لي ولقد وجدت في تونس الخضراء اهلي وذوي رحمي واجتمعت بابن اخي الامير خالد البكباشي في معسكر (السباهي) ثم بنسيبي ابي طالب ثم اظهر اعجابه من حضارة تونس الحديثة وبلوغها المرتبة العليا من الرقي وذكر انه قد سأل الحكومة الفرنسوية ان تجيز له عبور تخوم الجزائر ليزور قبور ابائه واجداده في ناحية بالبكو من اعمال ايالة وهران وقد ادركه ما توخى فبرح تونس قاصداً بلاد آبائه الاكرمين

ونشرت مجلة تونس المصورة مقالا بمناسبة زيارته قدس الله سره لتونس قالت فيه ان نجل الامير عبد القادر الذي كان اكرم واحلم واقوى اعدائنا في حروبه حين الاستيلاء على الجزائر قد آنس بقدومه حاضرة تونس منذ ايام ولقد سر ضيفنا من زيارته قطرنا سروراً عظيما وفي اثناء اقامته بيننا حضر تمثيل رواية كرمين وفي خلال التمثيل زار كثيرا من الاشخاص من ذوي المقامات العالية وكانوا يحضرون التمثيل في قاعاتهم الخصوصية (اللواج) يصحب الامير ابن شقيقه الامير خالد البكباشي في جيش (السباهية) وحاجب قائد الفيلق الحادي والعشرين فمرحبا بالامارة واهلا بالزعامة .

الامير في الجزائر

بعد ان برح الامير رحمه الله القطر التونسي شخص الى الجزائر فزار فيها اضرحة الاولياء والشهداء وقبور اجداده وآبائه وكان استقباله في القطعة الجزائرية قد حدث بصورة سرية ولم يمكث في الجزائر سوى يومين ثم غادرها سراً كما دخل اليها سراً وما ذلك الا لكي لايشعر به الاهلون الذين يحفظون له ولابيه اجمل تذكار في قلوبهم الممزقة اسى من مرارة احتلال الاجانب وتحكم الغريب خلصهم من عناء الاستعباد وبلاء الاضطهاد

رسائل الملوك والامراء

بعد ان عاد رحمه الله من دار الجهاد الى البلاد ودخل سورية الفيحاء استقبله جمهور كثيف يضيق عن حصره الفهم والذكاء وقد اقامت له الحكومة والاهالي معاً احتفالا شائقا واسرع المهنئون الى منزله العامر يسمرون اليه حديث اخلاصهم ووداداهم واقبل الشعراء والادباء يسمعونه ترنيماتهم الجميلة وكتب اليه الاصدقاء كتبا جمة ورسائل متعددة وبرهن الملوك والامراء والوزراء برسائلهم على اجلالهم اياه مكانا عليا وها نحن ننشر تلك الرسائل الواردة بصورها خدمة للتاريخ الذي نحترم خدمته .

استانبول . المابين الهمايوني ٣ شباط سنة ٣٢٨ نمرة البرقية ٣٨٥

سمو الامير علي باشا نجل الامير عبد القادر المقيم في الشام . عرض تلغرافكم المبني على رجوعكم من ساحة الحرب في طرابلس الى وطنكم في الشام على الذات الشاهانية المقدسة التي اظهرت ارتياحها الى العواطف الشريفة التي اظهرها الطرابلسيون والى تفانيهم بخدمة العرش السامي والحضرة السلطانية تقدر جليل مساعيكم وتظهر امتنانها من خدماتكم الباهرة مع اهدائكم السلام الشاهاني سيدي .

رئيس كتاب الحضرة السلطانية

علي فؤاد

من وكيل ناظر الداخلية الى الامير

استانبول ١١ مارت سنة ٣٢٨

بما ان الحاج عادل قد ذهب مأموراً الى اشقودرة فقد توليت نيابة عنه وكالة نظارة الداخلية فانا اشكرك بإسمه فالله يوفقكم الى مافيه خير الامة وصالح الوطن واتمنى لكم التوفيقات الربانية في كل اعمالكم

وكيل ناظر الداخلية

طلعت

استانبول في شباط سنة ٣٢٨ من نظارة الحرب

كنت تلقيت تلغرافكم المشعر برجوعكم من الساحة الحربية الى وطنكم الشام وقد تجلت لي حميتكم وشهامتكم التي فطرتم عليها فاشكركم على هذه

الشمائل الطيبة والحماسة الشرقية واشكر مظاهرتكم ومساعدتكم للعاجز في امر المحافظة عَلَى شرف وناموس الوطن العزيز الذي هو كعبة مقدسة يشخص اليها كل منا

ناظر الحربية

محمود شوكت

من نظارة الداخلية

٤ شباط سنة ٣٢٨

سمو الامير المحترم

ان الخدمات الوطنية التي اظهرتموها في طرابلس الغرب توجب الشكران واني اشاطركم الحزن لحصول النتائج بشكل مؤلم بصورة تعاكس ماتودون (١) عَلَى اني ارجو دوام حسن خدماتكم الجديدة وبهذه المناسبة اثبت لكم ان خلوصي ومحبتي الصميمية باقية ومؤبدة سيدي ·

ناظر الداخلية طلعت

من نظارة الداخلية ايضا

نومرو ٨٢٥٠٦

استانبول ٢٧ شباط ١٣٢٨

لتكن حميتكم الوطنية مشكورة ومساعيكم المقدسة مبرورة لنستند عليها عند الضرورات ·

ناظر الداخلية طلعت

---

(١) يشير ناظر الداخلية سابقا والصدر الاعظم اليوم الى استياء الامير

من الصدر الاعظم السابق حسين حلمي باشا

صاحب السمو الامير المحترم

بايدي التكريم تلقيت كتابكم المؤرخ في ٧ اغستوس ٣٢٨ ثم تناولت برقيتكم بكل فرح وسرور واظهرت كل جذل من الاحاطة باخباركم .

ان مساعيكم المبذولة باثارة عواطف مجاهدي طرابلس الغرب وتحريضهم على القتال تقدرها الدولة العثمانية بصورة عامة وعليه فاننا نبتهل الى الله تعالى بانجاح مقاصدكم ومساعيكم الدينية المبرورة .

حسين حلمي عضو الاعيان

من فرع الشجرة النبوية الطاهرة سليل البتول

وقرة عين الرسول الشريف حسين باشا

امير مكة المكرمة

جناب الشهم الهمام حضرة الامير الخطير علي باشا

بعد اهداء اجزل التحايا والتسليمات الوافرة بكل تجلة وتوقير تلقيت كتابكم الكريم برفق ولدكم فيصل وادخل علينا من المسرات والبشر بفوزكم على عدو طرابلس من بلاد العرب المحروسة مالا اكد اصفه اسبغ

.قدس الله روحه من عقد الصلح على تلك الصورة وقد كان اسكنه الرحمن فسيح جنانه يود ان تبقى الحرب مشتعلة النار حتى يتاح للمجاهدين طرد اعدائهم طردا قبيحا واخراجهم من ديارهم بصورة ذليلة .

الباري عَلَى السيادة جـلائل نعمه وانا نحمد الله عَلَى جزيل افضـاله على ما نحن فيه وجميع سكان هذه الاقطار من العافية وانا واياهم لانزال باسطين اكف الضراعة والابتهال لمنه وجوده ان يعجل لعباده المؤمنين بالفرج والمخرج الجميل انه الجواد الكريم · اما كحيلان (١) الحرس فقد وصل في الحال وجعلته لنفسي وخصصته بها فالله المأمول ان يحرس ذاتكم الشريفة والعائلة المكرمة من كل سوء وان اولادنا علي وعبد الله وزيد يقبلون انامكم المطهرة وبكل شوق وتوق اقبل عيون قرة الناظر الحبيب الامير محمد سعيد ودمتم

امير مكة

٢٩ ش ١٣٣٣ الحسين بن علي

من عبد الحفيظ سلطان مراكش الى الامير (٢)

ابن عمنا الجليل المرضي الشريف سيدي الامـير علي بن الامير عبد

---

(١) اسم لجواد اهداه سموه الى بن عمه شريف مكة المكرمة

(*) توخينا ابسط العبارات في ترجمة البرقيات والرسائل حتى ندع القراء يتفهمون معانيها ومبانيها بدون نقص او زيادة اما الرسائل المتعلقة بالمسألة الحورانية فقد تركناها على اصلها بدون ان نزيد فيها او نحذف منها حرصا على محتوياتها التاريخية من الضياع

(٢) كانت كتابة هذه البرقية وارسالها في الايام الاولى من جلوس مولاي عبد الحفيظ على عرش مراكش · ومولاي عبد الحفيظ هو الذي جر الخسار على بلاده

القادر بن محي الدين سدد الله خطواته وسلام عليك ورحمة الله و بركاته و بعد فقد وصل كتابك الى جنابنا العالي ونورنا المتلالي وارتجنا الى تهانيك بما انعم الله علينا من تيسير الجلوس على عرش مملكة اسلافنا الكرام قدس الله ارواحهم في دار السلام ثم اخبرت ان المسلمين في تونس والجزائر متهللون فرحون مستبشرون بتوليتنا امر عباد الله وان سرورهم تضاعف لفوزكم على عدو الله في بطحاء طرابلس من بلاد المغرب هناك الله بنعمته المتوالية وعطاياه الابدية وهو المسؤل ان يمدنا من حوله ومعونته بما حملنا من شؤون عباده وسلام الله عليك ١٣ شعبان سنة ٣٢٨ هجرية

القاهرة — قصر النيل ١٠ سبتمبر ١٩١٢

من البرنس محمد علي شقيق الجناب العالي الخديوي عباس حلمي باشا
الى السيد الشريف الامير علي بن الامير عبد القادر الحسني

و بعد فقد سر خاطري وقر ناظري بما قمت به من حسن الذود عن حياض الاسلام وجميل الدفاع عن ملة خير الانام فلا برحت مساعيك في نمو وكمال وشروق ما ابتسم الفجر وما لاح الشروق ولقد قدرت خدماتك هذه حق قدرها وانزلتها المحل الارفع فتذكارا لما بيننا من حسن المودة اهدي الامير

بتهامله وانصرافه الى الجمود فتنازل عن السلطنة لاخيه مولاي يوسف بعد ان انشب الاستعماريون من الفرنجة اظفارهم في لحوم مسلمي تلك البلاد الذين لم يذنبوا ذنبا سوى انهم مسلمون خلصهم الله مما هم فيه انه خير مسؤول

الخطير رسمي المرسل صحبة هذا مع كتاب الفته عن رحلتي في البلاد اليابانية وفي الختام ارجو ابلاغ سلامي الى مجلسكم الفاضل حرسه الله

محمد علي

طنجه ٣ نيسان ٩١٢

من الامير عبدالمالك سلطان مراكش الخالي الى اخيه الامير علي

اهنئكم على المساعي التي بذلتموها في سبيل الاتحاد الاسلامي واتمنى لكم دوام التوفيق سيدي

عبد المالك

الجزائر ٣١ آذار ١٩١٢

صورة برقية

من الامير خالد الحسني قائد فرقة السباهي

الجزائرية الى عمه الامير علي

نصر الله المجاهدين فقد كان بلاؤكم حسناً جعل الله على يدكم كل نفع للاسلام فلو بنامعكم سيدي

ولدكم المخلص

خالد

استانبول ١٦ آذار ١٩١٢

من ناظر الحربية ناظم باشا الى الامير علي

تشكراتي لسموكم صميمية

ناظر الحربية

ناظم

من جمعية الاتحاد والترقي في الشام

الى الامير علي

سليل بيت الشرف والمجد زاكي الارومة والجد فخر الامراء الكرام ونخبة الاعيان الفخام عالي الهمم حضرة صاحب السمو الامير علي الجزائري الحسني ادام الله تعالى وجوده وخلد نفعه آمين

السلام عليك ايها الامير الخطير ورحمة الله وبركاته اما بعد فان اخوانكم العثمانيين دائبون على حفظ الوداد والمحبة الخالصة الطاهرة النقية نحو ذاتكم الشريفة الذكية خاصة وفوق ذلك فان جميع الامة العثمانية مسرورة من تفانيكم في محبة الوطن ومغالاتكم في الذب عن حوض الامة والجهاد في سبيل الله تعالى حفظاً لكيان الملك وتأكيدا لكلمة الخلافة العظمى ثم ان مثل هذا الاسترسال في بذل النفس والنفيس لدفع غائلة الاعداء وجمع شمل الامة واستكمال اسباب الدفاع لرد غواية الاخصام الالداء هو والحق من اعظم الفخر والمنن التي سيسطرها لكم التاريخ العثماني طول الزمن فآباؤكم الكرام واجدادكم العظام قد اورثوكم هذه المفاخر وخلفوا لكم الشهامة والمروءة والبسالة والشجاعة كابرا عن كابر فانتم انتم ابناء اولئك الابطال وسلالة هؤلاء الجبابرة الاقيال وها هي افعالكم المأثورة ومعالي هممكم المشكورة تشهد بصحة مانقول وتبرهن على صدق ماندعي والله جل جلاله نسأل وبنبيه صلى الله عليه وسلم نتوسل ان يغدو لكم عونا ومعينا وحافظا وامينا وان ينصر

حضرة صاحب الخلافة العظمى وملجأ الامامة الكبرى وفي الختام نقدم لسيادتكم ازكى التحيات واعطر التسليمات .

من السنوسي الاكبر الى الامير

ارض جغبوب ٢٨ محرم ١٣٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الكرم الفياض والفضل الفضفاض خليلنا في امته وصاحبنا في جهاده الشريف الحسني السيد الامير علي بن الامير عبد القادر بن محي الدين حامي حوزة الشريعة باعماله الشريفة ومناقبه البديعة السلام عليكم سيدي ورحمة الله وبركاته فان ارتياحنا الى احوالكم البهية واخلاقكم الذكية وروحكم الحمية هو كل القصد والارب والامل والمطلب ولقد حمدناه تعالى حمداً جزيلا ، وشكرناه بكرة واصيلا على بلوغكم درجة المجد العليا واحرازكم رتبة المعالي القصوى وانتم لم تدركوا ذلك الا بجهادكم المبرور وسعيكم المشكور ومن اشبه اباه فما ظلم فقد كان والدكم قدس الله سره مشهور السيرة جاهد في سبيل الله حق الجهاد واخلص لرسوله حق الاخلاص حتى عد من السلاطين المتفردين وهذه الدرجة التي وصلتم اليها هي اشرف درجات الجهاد فبها تنالون من الله المراد وبها تدركون الخير والاسعاد حفظكم الله وجعلكم لنا عونا وذخرا وركنا انه سميع قدير .

سر الاله القدسي

احمد الشريف السنوسي

من قائد طرابلس الغرب العثماني الى الامير

طرابلس ١٦ مارت ٣٢٨

ان ما بذله اهالي مصراطه من الحسيات الدينية والشعائر الوطنية خصوصا ما اظهروه من التفادي والتضحية وما قام به زعماؤهم من المساعي الجليلة في نصرة الخلافة والملة كل ذلك راجع اليك فلقد كنت سببا في اثارة حماستهم قابلك الله بحسن صنيعه علی خدماتك واسعد اوقاتك وايامك

قائد موقع طرابلس الغرب
نشأت

هذا بعض من كثير ولو اردنا ان ننشر الرسائل والبرقيات التي هطلت امطارها علی سمو الامير قدس سره لاحتجنا الى صحائف عديدة ولكننا اكتفينا بنشر اهمها

من مطالعة ما تقدم تتضح للقاري الثقة المتبادلة بين الملوك والعظماء وبين صاحب الترجمة بلل الله ضريحه بندى الغفران واسكنه فسيح الجنان



الامير والمسألة الحورانية

ظهرت محامد الامير في الفصول السابقة ظهور الشمس في رائعة النهار فلم تبق في النفوس مظنة او ادنى شك في انه الرجل الفرد الذي اشتغل طول حياته في سبيل حفظ كيان الدولة العثمانية وصيانة حقوقها من عبث العابثين وطمع الطامعين عَلَى ان هذه المحامد الطبيعية لم تقتصر فقط عَلَى اعماله في الذود عن حياض طرابلس المنكودة الحظ بل هي تعدت كل ماله مساس بالحوادث الجارية تحت سماء هذه السلطنة الكبيرة وانا لنسرد هنا التفاصيل الهامة عن المسألة الحورانية وهي المسألة التي تفاقم خطرها واعتاص امرها واستبحر ضرها واستشرى داؤها وعز دوائها

المسألة الحورانية اومسألة الدروزظات الى امد طويل قلقاً للدولة ومانعاً لها في الغالب من اجراء كل ماتتصوره من احداث الاصلاحات في قطعة سورية وانماء العمرانيات في الحوالي والاقطاع المفتقرة الى روح الحضارة الحديثة حتى ينتعش اهلوها وتسعد الحال فيما بينهم وقد طالما اعدت الخطط ورتبت الخرائط ووضعت الانظمة لتعبيد الطرق وتأسيس الاحياء واقامة الخطوط الحديدية وانشاء الملاجئ والمباني فكانت الحركات الداخلية تكف يدها عن اي عمل اصلاحي تتمسك به لان الدروز قدذاقوا من عسف كبار المأمورين وظلمهم مالا يوصف وبديهي ان الشغل الشاغل

الذي يفل يد الدول ويذهب بها الى التردد عن صالح الاعمال وجليل الافعال انما هو الشغب الداخلي لانه يهدم بسرعة وباقل من القليل كل ما يبنى في سنوات متعددة و يقضي على كل وسائل الحضارة والتمدن دون اعتداد او اكتراث لان الروح التي لا تتشرب السكينة والهدو ولا تألف حياة العمل الجدي هي روح اضطراب وشغب وفتنة واثارة عواطف واهاجة مشاعر لا تتأثر من التدمير والتقويض والتخريب ولا ترق لمصاب يلم بابرياء البشر وقد كان يقتضي لشعب الدروز مرشد يرشده الى محاسن الاشياء بعد ان فاته هدى الانبياء على ان هذا الرجل الخليق به ان يقوم بتمثيل دور المرشد الهادي كان من الصعب ايجاده في محيط مثل محيطهم فكيف يمكن العثور عليه لاخماد ذلك الضرام الدائم الشرر ٠

والحقيقة ان الدولة كانت تلاقي اعظم المصاعب في تهدئة مثل الحورانيين والدروز الذين لاتلين قناتهم بالسيف او النار ولذلك رأت ان تعمد الى فض كل حادثة من هذا القبيل بطريق السلام والهدو ولم تر من يقوم بمثل هذه القضية الا شخص الامير. نعم ان الدولة العلية ما كانت لتجد في شعبها نفسا احق بالاجلال والتقديس من تلك النفس الكبيرة ٠ وهل كان رحمه الله واسكنه فسيح جنانه الا رجلا عظيما اركب من عيشه ظهر صعبة شموس فراض جهده من صعوبتها وذلل من شماسها وخلق في مضطرب فوضى السياسة ومختلط فوضى الاقلام المتنافرة المتصادمة ٠

وهل كان الا صبورا جلودا والصبر والجلد اول شروط البطولة،انه لمن الخطأ ان يسمى الناس سرعة الهياج قوة والرجل المريض الاعصاب ليس جديراً ان يسمي قويا وانما القوي من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة قائم الصلب كالأمير قدس سره الذي لم تخالط دمه الشريف سموم الانانية وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس وفي الحوادث التي نسردها اوضح دليل عَلَى قوة اعتماده عَلَى صبره وايمانه ويقينه .

ارسل دولة ناظم باشا والي ولاية سوريا الجليلة سابقا رسالة خصوصية الى سمو الامير بتاريخ ٣٠ مارت ١٣٢٥ يستنفره فيها الى نصرة الدولة العلية في الحادث الهائل الذي قام به الحورانيون والدروز في سهول ضاحية بصرى اسكي شام وهاك الرسالة التاريخية بحذافيرها .

سعادة اخي المحترم :

كنت بينت لسموكم شفاها حادثة (بصرى اسكي شام) التي قتل فيها اشقياء الدروز اثنين من الجنود ونهبوا بندقيتيهما واصابوا بعض تجار الشام الذين فتحوا حوانيتهم في الضاحية المذكورة بالاذى وسلبوهم اشياء تزيد قيمتها عَلَى ستة آلاف ليره فالمرجو من الامير وقد عهدناه باراء صالح الامة ان يبذل همته في استرداد ما نهب وفي السعي باعادة السكون والهدو .

والي الولاية

ناظم

ووردت الى سمو الامير رحمه الله تعالى رسالة ثانية من متصرف لواء حوران السيد موسى كاظم الحسيني بتاريخ الشهر المذكور ننشرها فيما يلي بحروفها :

صاحب السمو المحترم :

المعروض بيد التعظيم والتكريم تلقيت امركم المؤرخ في ٢٣ ربيع اول سنة ١٣٢٧ المتضمن المواصلة لقرية عرا لمعرفة ما حصل مع يحيى بك الاطرش وقد بلغنا امس ان جموع الدروز تفرقت وذهب كل في سبيله وكان عملهم هذا دليل تعقلهم ورزانتهم وادراكهم عاقبة الامور ولي ثقة تامة بحسن تعقل يحيى بك وحمود بك وباقي رؤساء الدروز الذين ولاشك سيبذلون كل ما في الوسع لصيانة الامن وتقرير الهدو والراحة العمومية وان يتلافوا الامر بالحكمة فقد بلغ السيل الزبى اما بندقية الجندي القتيل وجبخانته فهي الى الآن في القرية عند فرحات الجر وسنطلبها من المذكور بواسطة يحيي بك الاطرش اما المسلوبات التي سلبت من حوانيت تجار الشام فقد تحققت امر وقوعها وبقول الاعراب انهم كانوا مصرين على مهاجمة بصرى اسكي شام بتحريض الدروز ومع ذلك فانهم لم يدخلوا القرية كما فهم من جواب مشايخ الزوية على انه قد تأكدت مخالطتهم بالحوادث واشتراكهم فعلا بالقتال الذي حصل فنحن لانبرح ننتظر آراء سمو الامير بهذه الشؤون فان اهالي بصرى اسكي شام ملتزمون جانب السكون والهدو

وقد اخذوا يعودون الى سابق اعمالهم واشغالهم رويداً رويداً ولقدام تم ان اسعى بتهدئة خاطر والي الولاية وتطمينه فنفذت هذا الامر الكريم وارسلت برقية بطريق درعا وارى ان ارسال برقية ثانية الي دولته من سموكم يكون ادعى الى تطمين بالي واراحة احوالي سيما اذا كانت برقيتكم مرسلة بطريق السويدا الذي هو اكثر قرباً من درعا واقربها الى الشام ، ان تشديد الدروز الحلف والميثاق لا يشمل اهالي بصرى اسكي شام والضواحي فاذا كان الدروز يرغبون الصلح العام وعدم توسيع الخرق على الراقع فيجب عليهم ان لا يخرجوا عن اوامر ونواهي سموكم والله الموفق لما فيه صالح العباد .

المخلص

متصرف لواء حوران

السيد موسى كاظم الحسني

من مطالعة البرقيتين تتجلى للقارىء حقيقة ما هو كائن من العداوة بين الدروز واهالي حوران كما تتجلى امامه حراجة موقف ولاية سوريا بازاء هذه الحوادث العظيمة .

ولقد ظهرت روح الاتحاد في ملافاة اضرار هذه الحوادث في ارادة سمو الامير رحمه الله بعد ان اطلع على نصوص رسالة ناظم باشا اما رسالة المتصرف فتفيد خروج الامير من الشام الى جبل الدروز ومناداته بالامن واقراره الصلح بين المتنافرين وازالة المشاغب والمتاعب وسنفصل بيان

رحلته الى البلاد الحورانية وكيفية جمعه كلمة الدروز على طاعة الدولة وحب الله

بعد ان ترك الامير دمشق شخص الى قضاء السويدا واول عمل مبارك قام به انه ارسل الى قبائل صلخد وعنزه والمغير والشفارية وام الرمان ودبش الدرزية منشوراً دعا فيه زعماءها الى الاجتماع في قضاء السويدا وقد طلب اليهم المصادقة على منشوره دلالة على قبولهم دعوته فلما جاءت اليهم نسخ هذا المنشور بواسطة قائمقام السويدا لم يترددوا عن التوقيع باختامهم في ذيوله دلالة ارتياحهم الى دعوة الامير اما المنشور فهذا هو نصه بالحرف الواحد :

الاجلاء المحترمون رؤساء ومشايخ قبائل الدروز :

غب السؤال عنكم فالذي اخبركم به انني اتيت الى قضاء السويداء بناء على امر والي الولاية العالي لابلاغكم بعض الشؤون الهامة التي تتعلق بصالح وطنكم وعليه فقد بت اؤمل سرعة حضوركم الى قصبة السويدا صباح نهار الثلاثاء الموافق ٣٠ ربيع اول ١٣٢٧ ولا اقبل لتخلفكم عن هذا الاجتماع عذرا ولن اتساهل مع من يتنكب عن الاجتماع موكلا غيره وما على الذين يريدون عدم مشاركتنا بهذا الاجتماع الا ابلاغنا والسلام

٢٦ ربيع الاول ٣٢٧

الامير
علي بن الامير
عبد القادر

وفعلا فان حسين افندي الاطرش وسليم كيوان وحسين عبده فرج

وفارس سعيد الاطرش وغيرهم من زعماء الدروز قد اجتمعوا في قضاء السويدا في نهار الثلاثاء الذي عينه الامير في منشوره اما كبير زعماء الدروز ونعني به يحيى بك الاطرش فقد تخلف عن المجيء وارسل الى سمو الامير الخطير هذه الرسالة معتذرا اليه عن عدم حضوره :

الى سمو الامير الخطير

غب لثم راحتكم الشريفة اعرض انني تشرفت بقراءة امركم الكريم الصادر في ٢٢ ربيع الاول من عام ٣٢٧ وقد طلبتم الى ان احضر الاجتماع المقرر عقده في السويدا نهار الثلاثاء واظهرتم عدم قبولكم عذرا ممن يتخلف عن الاجتماع او ممن يوكل احداً بتمثيل نفسه وحيث ان مرضا هائلا يلازمني منذ مدة فقد عولت على ان لا اختار غيركم وكيلا عني يقوم مقامي في الاجتماع المعقود وفوق ذلك فان حمود بك لديكم وفي وسعكم ان تأتوا بالعمل الذي ترونه موافقا فيرضى الدروز به فلا استنكره بصورة قطعية ولا اخالفه وثقتي كبيرة في ان سمو الامير لن ينزع الى ما هو مخل بصالحنا بعد ان تجلت له خوافي الحادثة وابسطت له مكنوناتها واحترامي الجزيل اقدمه لكم

يحيى الاطرش

وارسل الامير رحمه الله ايضا نفس المنشور الى عشائر الدروز الاتية اسماؤها : القرية ، الميندرة ، حوط ، وبكا ، سهوة الخضر ، ميامس ،

ابو زريق الرشيدي فاجاب زعماؤها بالايجاب وحضروا ذلك الاجتماع التاريخي على انه يجدر بنا ان نفصل حادثة الخلاف الواقع بين الدروز والحورانيين تفصيلا يتشرب منه القارئ لب المسألة ثم نعود الى ذكر نتائج ذلك الاجتماع الغريب ·

بين سكان بصرى اسكي شام وعشائر الدروز المرابطة في الحوالي من هذه القطعة بغض وعداء ينتهيان الى ازمنة قديمة وقد اتفق ان قسما من سكان قرية القريا قد التقوا ببعض اهالي بصرى داخل مزروعات البلدة فحصل بين الفريقين خلاف شديد انتهى الى شجار وقتال دموي وفيما كان اهالي بصرى يحاولون الدفاع عن انفسهم سقط من رجال الدروز قتيل واحد وفي اليوم التالي هجم دروز القريا والحوالي مع رعاتهم علَى بصرى فاتموا فيها النهب والسلب واستولوا عليها ووضعوا ايدهم علَى حوانيت التجار وفي خلال هذه الحوادث الدامية قتل ضابط عثماني وجندي آخر و بعض الاشخاص فاتسع نطاق الهيجان علَى اثر مقتل هلال الاطرش واستنفر الدروز بعضهم الى الاخذ بثاره واقبلوا الى يحيى بك الاطرش زعيمهم يعزونه باخيه وابدوا تحمسهم للاخذ بالثار حسب الاصول المتبعة لدى العشائر وطلبوا ان يقوموا بهجوم آخر علَى بصرى ومــا جاورها من الضواحي فيجردون عائلة المقداد من اموالهــا واملاكها و يذلونها تـذليلا وعلَى اثر ارتياحه الى تشوقهم هــذا تكررت الحوادث الدامية واوشك الامر ان

يتضرج فتداركت الحكومة هذا الخطب الجسيم والبلاء العميم بان انتدبت لاطفاء ضرام الفتنة الهائجة سمو الامير رحمه الله حسب مـا اطلع عليه القاريء

هذا هو تفصيل الحادث المشؤوم الذي وقع بين عائلة المقداد الحورانية وعشائر الدروز ولقد ذكرنا ايضا ان يحيى بك الاطرش كان قد ارسل الى الامير رسالة ذكر له فيها اسباب تخلفه عن الاجتماع وها نحن نذكر له رسالة ثانية كتبها للامير بهذا الصدد :

سمو الامير المعظم

بعد لثم انامله الكريمة اعرض ان تراكم الناس عَلَى زيارتي من كل حدب وصوب وما اناقبه من المشاغل والشواغل قد اخرني عن حضور الاجتماع المقرر عقده في السـويدا نهار الثلاثاء على انه لا يجب ان يعد انصرافي عن الاجتماع تقصيرا مني في خدمة سموكم فان الله يشهد ان خدمتكم واجبة وان عشيرتي الدروز والمغاربة هما عشيرة واحـدة يتولى زعامتها شخصكم الموقر وحيث عهدت الى سموكم تمثيلي في ذلك الاجتماع فقد رأيت ان تكونوا عَلَى بينة من رغائبنا وامالنا ومطالبنا العامة المنحصرة كلها باجلاء عائلة المقداد عن بصرى واحلال غيرها مكانها من عائلات الحورانيين ومتى صادق والي الولاية عَلَى قرار مجلس الادارة بهذا الشأن فاننا لا نتأخر عن جمع الدروز وحملهم عَلَى عقد هدنه يتقرر فيها الامن

والسلام واذا كانت الدولة حرسها الله لا تريد الاعتراف بهذه المطالب فان العشائر تخلد الى التذابح والتناحر ونحن تحت حمايتها ورعايتها. اقسم لكم ان الدروز لا يصالحون عائلة المقداد ما لم تصبح هذه احط شأناً من طائفة اليهود فاذا لم ينزح المقداد عن بصرى فاننا لا نصالح بل نثيرها حرباً كحرب بكر وتغلب وحيث قد القينا في ايديكم كل امورنا وعهدنا الى سموكم القيام بتمثيلنا في الاجتماع المزمع عقده فنستحلفكم ان تأتوا الامر المناسب والله الموفق

في ٣ ربيع اول سنة ٣٢٧ عبدكم ورهين اشارتكم

يحيى الاطرش

برقيات ورسائل مرسلة الى الامير

صورة برقية قائمقام عاهرة

سمو الامير علي باشا الجزائري

حسب امركم بلغنا رؤساء ومشايخ القضاء ضرورة الحضور الى السويدا نهار الثلاثا وقد اتفقوا على رغائب سموكم

في ٦ نيسان سنة ٣٢٥ قائمقام عاهرة

ابو الخير

برقية ثانية

سمو الامير علي باشا الحسني

اتمنى لسموكم نجاحاً باهراً في مسعاكم الذي اتيتم من اجله الى بصرى واتمنى لكم طول الاقامة حتى اتشرف باستجلاء معاني ملاحتكم

في ٨ نيسان ٣٢٥

متصرف حوران

كاظم

برقية ثالثة

سمو الامير علي باشا الحسني

ارجو ان تأخذوا من الدروز تأمينات قوية بشأن تقرير الامن والسكون واعادة المنهوب الى ذويه بفضل وطنيتكم ومروءتكم

متصرف حوران

كاظم

الاجتماع العظيم يوم الثلاثاء

علم قراء تاريخ هذا البطل العبقري ان يوم الثلاثاء هو موعد للاجتماع

التاريخي الذي سيحضره زعماء قبائل الدروز تحت رئاسة الامير لتقرير
الامن والسكون في انحاء حوران وضواحي الجبل ولقد اسرع هؤلاء
الزعماء والرؤساء من كل حدب وصوب ليسمعوا درر الاقوال وغرر
الافعال وثمين النصائح فاعتلى الامير فيهم منصة عاليـة فجعلوا يديرون
النظر اليه و يتفرسون في ملامحه الجريئة السامية وقد صعقوا من الضياء الباهر
الذي يشع في عينيه ولبثوا سكوتا واخذ الامير يتلو عليهم خطابه الطويل
آتيا فيه عَلَى نصحهم وارشادهم وحثهم عَلَى الانصراف عن الامور المخلة براحة الامن
العام و كان يتلو ذلك بصورة مؤثرة غرست شعوراً خفياً في نفوسهم هو شعور
الاقتناع بمـا يقوله و ينطـق به ثم تطرق الى ذكر ما للدولة العلية من
الحول والشأن والقوة والسلطان ورغبهم في موالاتها ومصافاتها وقال ان
من يجفوها تجفوه وتعامله بكل قسوة و بلا مرحمة ومن يحسن مصافاتها
تخلد الى مصافاته بمحض ودها وصداقتها وتساعده في كل شؤونـه
الحياتية واموره الذاتية وعكف على سرد عقبى الظلم والجهل فقال الجهل
مقوض الامم ومدمر الشعوب والظلم مخرب الابنية الشداد ومبدد الجبال
والاطواد فمن ظلم منكم ياشعب الدروز كان باحثا عن حتفه بظلفه ومن
مال الى الجهل قاده الجهل الى حفرته وتخـلى محبوه عن نصـرته وقد
يجردكم الله من رحمته فيصبح زرعكم باليـا وزهركم ذاويا وقطـركم
خاليا بعد ان كان حاليا فاولى بكم ثم اولى ان تتركوا هـذه المشاغب

وتنكبوا عن احداث المتاعب فأن فعلتم ذلك ادركتم من الله خيراً واحساناً ومن الدولة مجداً وشأناً ومن الامة شكراً وامتناناً ، ان والي الولاية العالي الذي كلفني باقرار الامن في ربوعكم يعدكم بانه سيقوم بما هو متفق مع صالحكم العام وصيانة حقوقكم من تعنت الظلام فالى السكينة ياشعب الدروز سارعوا والى الهدو تسابقوا ، ثم استمر على خطابه وابداء نصحه وارشاده والزعماء في اطراق وتفكر كأن على رؤسهم الطير وفي النهاية هتفوا له بالدعاء وقد تأثروا من احاديثه وكلامه واظهروا حسن الطاعة وعدم الخروج عن الجماعة واقسموا على انهم يشدون ازر الدولة والامة فلا يسيئون الى بريء ولا يغيرون على املاك جيرانهم او يعتدون على تخوم غيرهم من الآمنين المطمئنين وقد كان اكثر الجموع تأثيراً الجهال فقد تبين لهم الخطر الاكبر الذي كان محدقا بهم من جراء اغراقهم في الاعتساف وعدم الانصاف ثم افترق جمعهم على ان لايعودوا بعد هذا اليوم الي الفتنة وقد اعتدلوا في مناهجهم وآرائهم وصرفوا النظر عما كانوا طلبوه من الامير رحمه الله من المطالب وكانوا قبل هذا الاجتماع قدابوان يتخلوا عن جمالهم ونوقهم للحكومة ليتسهل لها نقل الارزاق فلما استمعوا نصح الامير وارشاده تركوا جمالهم للحكومة واباحوا لها استخدامها في مصالحها وهكذا حقنت الدماء وازيلت الشحناء وانقطعت اسباب العداء بعد ذلك الشقاق والبلاء وكل ذلك يرجع الى كرم المساعي التي بذلها

الامير رحمه الله ولولاه ما افتر ثغر السلام بين الحورانيين والدروز فقد كان له كل التأثير عليهم وكان له مطلق النفوذ عَلَى زعمائهم ورؤسائهم والحكومـة السنية قدرت هذه الخدمات البهية فشكرت الامير بلسان اوليائها وانصارها شكراً جزيلا

قبل ان يترك الامير رحمه الله جبل الدروز اقام له الزعماء حفلة ساهرة تليت فيها سور محامده ، وآيات محاسنه وقرأت القصائد وانشدت الاهازيج فقام زعيم اثر زعيم مصوراً في جموع العشائر والقبائل مافطر عليه الامير من حسن الخلق وجميل السيرة وطيب السريرة وحلو الشمائل وميله الى الاخذ بناصر الامة واخلاصه في الخدمة اخلاصا اطلق الالسنة في الثناء عليه وترك القلوب متعلقة به ايما تعلق وللمرة الثانية قام الامير رحمه الله تعالى خطيبا في هذا الجمع محرضا اياهم عَلَى الطاعة والسير مع الجماعة فجددوا له الميثاق عَلَى مكرهم بجانب الدولة و بعدم تعرضهم لايذاء ايا كان من الاهالي و بعد الانصراف والارفضاض من هذه المأدبة عاد زعماء الدروز فارجعوا المنهوب والمسلوب اما الامير فانه شرع في كتابة الحوادث التي جرت الى والي الولاية ناظم باشا مبشراً اياه برجوع الامن الى نصابه في جبل الدروز وفي مقاطعة حوران ٠

رسائل الامير الى الوالي

ناظم باشا بعد استتباب الامن في الجبل

١ نيسان — ١٣٢٥

الى جانب والي الولاية العالي :

امس ليلاً عكفتُ عَلَى متابعة السفر حتى وصلت الى قرية (عره) وهنا التقيت بالزعيمين الدرزيين يحيى وحمود فابلغتهما النصح وذودتهما الارشاد ثم بعد هنيهة اقبل الرؤساء الى حوالي القرية وبما بذلته من النصائح المؤثرة تمكنت من اعادة السلام ونشر الهدو وابلغت ارادة الحكومة الى الزعيم يحيى بك الاطرش بما يتعلق بحادثة (بصرى اسكي شام) وطلبت اليه اعادة المسلوب وارجاع المغصوب والمنهوب والاقلاع عما لايلائم حالة الدولة والملة ولا يتفق مع المصلحة العامة فتعهد لي مقسما انه سيظل عَلَى ولائه للحكومة مرتبطا بودها وانه سيوالي الحورانيين ويبذل جهده وكل ما لديه من الوسائط والقوى في سبيل تقرير السلام اما الزعماء والرؤساء من الدروز فهم لا يقلون رغبة في الطاعة عن يحيى بك هذا كل ماحصل ووقع وساتابع ذكر النتائج الباقية لعطوفتكم .

الامير علي

نجل الامير عبد القادر

الرسالة الثانية

٤ نيسان سنة — ١٣٢٥

الى جانب والي الولاية العالي :

في رسالتي البرقية اثبت لكم ما حصل وتوقع من امر الاجتماع الذي عقد في يوم الثلاثاء واليوم اعود فاذكر للجناب العالي ما كان فاتني ذكره وسرده، لم يكد يتم عقد الاجتماع في سهل (عره) المنبسط حتى ثارت ثورة الجموع وغلبت مراجلهم واتقدت نيران احقادهم وحصلت لهم زمجرة وجرجرة طبقت الفضاء حتى اوشكت ان تصل الى السماء وقد طلب اليّ زعماء ومشايخ الدروز ان اسأل الحكومة في مسألة حمل عائلة المقداد عَلَى الجلاء عن ضاحية السويداء بعد ان تعقد هدنة موقوتة تقرر فيها المسائل المختلف عليها فرأيت ان تمسك هؤلاء بمثل هذه المطالب قد يوهن العزائم و يدعو الى اثارة الفتن بصورة دائمية والاخلال بسلطة الحكومة ونفوذها وانه قد يُعدم حدوث الاصلاح في سائر البلاد و يبث الفساد في بقية الانحاء والارجاء و بما بذرته من غروس النصائح وفروع الارشاد تمكنت من اقناعهم بالعدول عن هذه المطالب وصورت لهم سلطة الحكومة و بطشها وانها قادرة عَلَى العقوبة والاساءة الى من يستمر على اساءته فتشربت قلوبهم نصحي وانقادوا الي غير مرائين عني وآلوا عَلَى انفسهم الطاعة وعدم الخروج عَلَى الدولة وفهموا ان امانيهم الاولى لاتدرك الا باسالة المهج واذابة القلوب

فعقدوا صلحهم مع اعدائهم و بذلك زالت المشاغبات والعداوات من بينهم وانصرفوا الى حقولهم وكرومهم تحت ظلال السكون والامن هذا كل ما توقع ذكرته في سطوري هذه ولم آت الا خدمة يفترضها علي الوطن في كل آن وحين ·

علي

خدمة عظيمة للامير افسدها المخربون

ذكرنا في الفصول السابقة ان كل ما يصنعه الامير انما هو منبعث من اعماق نفسه لذلك ستبقى اعماله هذه خالدة مع الابد لانها ليست مسألة مصطنعة تولد مع الصبح وتموت مع المساء والذي يبرهن علَى رسوخ هذه الشمائل فيه هو اعتماد الحكومة اياه في حل معضلات الامور ومشكلات الحوادث وعظيمات الشؤون ولولا نفوذه وتأثيره على آل الاطرش زعماء الدروز لما تقررشي من الامن ولظلت المفاسد جمة الوقوع والمشاغب مستمرة الحدوث على ان هنالك خدمة جلى للامير غير هذه الخدمات وهي انه كان قد افلح في حمل الدروز علَى عقد هدنة طويلة بعد ان كانوا قد اشتبكوا والجنود اشتباكا داميا ومنذ حصول تلك الهدنة لم يعد للدولة العلية ما يمنعها من احداث الاصلاح الذي اعتزمت احداثه في القطعة الحورانية غير ان املها لم يلبث ان اصبح متداعيا فان سياسة بعض المخربين قد قضت على مساعي العاملين فاسماعيل فاضل باشا الذي كان واليا في ذلك العهد لم يظهر

أرتياحه الى الهدنة التي توصل الامير رحمه الله بحكمته الى عقدها واحب ان يقابل القبائل وجنوحهم الى السلم بالقوة والعنف دون ان يلتفت الى الاحوال الروحية التي نشأ عليها شعب الجبل الغيور على مصالحه ومنافعه ولم يكن يعلم ان مقابلة النار بالنار مدعاة الى انماء السعير واذكاء الشرر واستطارة اللهب وفعلا تمكن هذا الرجل بسياسة الطيش والقسوة والخنق والرعونة من التوصل الى اعادة القلاقل (١)

الرجل خالد باعماله ودينه

كل ما بالقارة الاوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومباني مشيدة وثيقة مهما بلغت من المتانة والرسوخ فهي قصيرة العمر بجانب الجهاد القلبي الذي يلاقيه رجال الاسلام في سبيل غاياتهم ومبادئهم وما انت اوربا لكثير جداً، مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف آراء واعمال ولكن كل ذلك يزول بجانب هذه العظمة التي يلبسها الله رجال الاسلام وانك لو سألت هذه الاوضاع والآثار لما اجابت ولظلت خرساء واجمة لانها تعتنق الموت والماديات كلها صائرة الى حضيض الموت الذي

(١) ولقد جرت سياسته الخرقاء الى ارسال الجيوش الجرارة الى الجبل وكل من القراء يعلم النتائج التي تلت ذلك ولو سلك فاضل باشا المسلك الوضعي الذي اوضحه له الامير في مسألة الدروز لما جري شي من تلك المآسي المحزنة

لاندركه واما الروحيات فباقية ، هذه شرائع الله ودياناته من شريعة موسى عليه السلام الى شريعة عيسى عليه السلام الى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم باقية مؤبدة القرار لا يعروها من الدهر احوال ولا اعصار فهي ابدا في اقبال وازدهار او ليست هذه الخليقة ومافيها من يانع الثمر والشجر والبشر مديونة بوجودها وخلودها الى هذه الشرائع الالهية؟ او ليست هذه الشرائع هي التي تحبب الينا التهالك وراء الاعمال العائدة علينا بما يفسح في نطاقها في سائر المسكونة؟ او ليست هي التي تعطي المبادئ للنفوس وتهيب بها الى التضحية؟ فما علينا وقد سردنا كل شيء الآن الا ان نلم بتأثير الدين في كل الازمان والاعصر التي تعاقبت عليه والاحقاب والدهور التي مرت بجانبه بحوادثها السوداء وفجائعها الاليمة المحزنة . قلنا انه عامل قوي في الاخلاق والعادات والاحوال والظروف ولولاه ما انتقلت شعوب الهمجية الاولى والجاهلية القديمة الى شعاع الحقيقة المضيء ولولاه ما محيت هذه الظلمة المهلكة التي سبح البشر في اعماقها امادا طوالا واعصرا واجيالا ، من هو الذي اهاب بمسلمي الاندلس الى التمسك بعقيدة اسلافهم غير مبدليها مع ان النار والعار والخجل والفقر والعذاب والالم والاهانة ، كل هذه القوى الجبارة تترصدهم فيما اذا لم يتنصروا ويتركوا عادات آبائهم . ان من قرأ حوادث الجلاء عن الاندلس يعلم علم اليقين ان المسلمين الذين خيروا بين النصرانية والقتل قد آثروا ظلام القبر على ترك عقيدة تمسك بها ذووهم ومات عليها اسلافهم واجدادهم وآباؤهم

ولقد كان يحملو لهم هذا الورد الاكدر لانهم ابصروا فيه خيالات السعادة الاخروية فماتوا كراما وهم يقولون لا اله الا الله ولا رسول الا محمد، هذه هي اعمال مخلدة تبقى ما بقي الامد علىَ حين تفني طوائف الاراء وهذه الصروح والهياكل والمباني ، او نظرت الى عظمة هـذا الدين الحنيف والى تأثيره في نفوس ذويه والى مباديه التي تهيب بالنفوس الى التضحية بكل سرور وابتهاج؟ من هو الذي رفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو في اول عهده في خلافة الاسلام لا قوة تعصمه ولا كتلة تشد ازره الى أشمخ المؤزر والنصر الاكبر؟ او ليس هو الذي سير الجيوش الى فتح مصر ففتحت وصارت للاسلام ملكا؟ فما هو العامل الى هذا الفتح القريب والنصر الغريب العجيب؟ الدين فلولا الدين ما تسنم عمر رضى الله عنه عرش المكنة والنجاح ولا ابصر في حياته فجر الفوز والفلاح ولولا رسوخه في نفس الامير رحمه الله تعالى لما امكنه ان ينجح في مسعاه ومهمته لدى شعب مازال علىَ الفطرة رغم وجوده في عصر النور والحضارة، بابيك قل امكن ان يخضع شعب لم يبصر النور ولم يعرف حقيقة الايمان وحقيقة الواجب بالقوة والبطش ؟ امكن ان نقول لهـذا الشعب الهائج قم لا نجح الله مقصدك الى مجاراة الامم في النهوض وهل تنفع القوة في تأديبه وتهذيبه؟ كلا ان القوة لا تنفع اذا اتخذت واسطة في تأديب مثل هـذا الشعب بل هي علىَ الارجح تغدو من اقصى بواعث نفرته واجلى اسباب ثورته ولو كانت ارادة الرسل الاولين صلوات الله عليهم متجهة الى

مقابلة اقوامهم وهم لا يبرحون على الفطرة بالشدة والصرامة لما ادركوا المبتغى ولظلت رسالاتهم عقيمة الجدى، هذا نبي الله موسى قد اتخذ الهدى محجة وطريقة وسلك سبيل البيان لا السنان فصدع قلوباً كافرة، وصدورا نافرة اهتدت بنوره · وهذا نبي الله عيسى كان له في شعبه مثل هذا الشان دعاهم الى الحكمة فلبوه وانقادوا اليه وتشربوا مبدأه ورأوا النور الالهي الواضح يتجلى في كلماته وارشاده ونصائحه ولم يختلف ماقام به رسولنا الاعظم صلى الله عليه وسلم عما قام به الرسل الذين سبقوه صلوات الله عليهم وعليه فقد قام في امة مضطربة النظام مختلة القوانين لا تفهم روابط الاجتماع ولا تكترث بما يسمونه ديناً او شريعة او اخلاقا او اثرا فلما جاءها بيان القرآن صدعت بالامر ورغبت عن الكفر فما تقدم يتضح ان كل شيء ممكن حدوثه بطريقة التبشير لا بطريقة التنفير وقد وضع الله الرسل صلوات الله عليهم امامنا منهجا نسير في سبيله ونقتدي باعمالهم في كل مايدعونا اليه الواجب فمعاملة الدروز بالقسوة من قبل فاضل باشا كانت معاملة طيش خربت ومزقت معاملة الامير لهم بالحنو والرأفة واخذه اياهم بالمجاملة التي اهابت بهم الى السكون والهدوء والتي دعتهم الى ان يكسروا من حدتهم فنسوا دمهم المراق وحقهم المهضوم وغفروا لعدوهم ذنبه فيا لتأثير الاخلاق الفاضلة على الشعوب الجاهلة ·

عائلة عبد القادر والدروز

تسعون الف درزي يمشون في ركاب الامير

ذكرنا في الفصول المتقدمة ماذهب اليه الامير من السعي في الجبل حتى توصل الى النجاح والفوز ويجمل بنا هنا ان نذكر بصورة مفصلة مابين الدروز والمغاربة من العلاقات والصلات القديمة التي طالما جاهر بها زعماء الفريقين المؤتلفين

يرجع زمن ارتباط الفريقين بحبل المودة والزلفى الى زمن الملك السعيد ناصر الدنيا والدين مولانا السلطان عبد القادر فقد كان قدس الله سره مولعا باخبار كل شعب شجاع ، شغفا بكل عنصر حلو الطباع ولما كان شعب الدروز الذين هو من صميم العرب لاتطرقه الخيل ، ولا يرهقه الكر والفر ولا يروعه الخوف والذعر وكانت اياديه في كل معركة متفقة ونفوسه الى كل لقاء مستبقة كان حب الامير له حباً جماً وعلى هذا الحب نشأ الفريقان ودرجا حتى قبض الله روح السيد الكبير اليه لنجل في فراديسه الصافية الهنية ، فاظهر الدروز موالاتهم لنجله ورئيس عشيرته من بعده الامير صاحب الترجمة رحمه الله . وذهب الابناء الى ما ذهب اليه الآباء من صون الولاء وحفظ الوفاء وجدد فرسان المغاربة وفرسان الدروز فيما بينهم الحلف والميثاق واباحوا لبعضهم مساكنهم ودورهم ،

فهي بما رحبت حل للوراد ، طلق حلال لكل مرتاد . وكانوا يتناجون و يتحادثون و يتسامرون و يقضون ديجورهم بحديث روائع الوقائع و بدائع المواقع فلا والله مالقى الناس حديث كحديثهم ولا اطرب بهم ذكر كذكراهم .

والشعب الدرزي الذي جعلته الطبيعة خدينا لفرسان المغار بسمة وصفيا وانيسا وحبيبا وجليسا ثابت الاسس لاتهبل عن جانبه الحوادث حمول يغضي عن كل شيء الا عن شرفه وفخاره تضيفه النوازل والكرب فيقريها الصمت والسكون وتهم المصائب ان تلتهمه فيلتهمها و يحمل لها مدى صدره الرحيب ، وان الانسان ليجد في هذا الشعب الباسل الذي لا يبرح على فطرته و بداوته الفكاهة والفصاحة والنشاط والتوقد والحزم والصدق والهمة والجد والاخلاص والشجاعة

اما زعماؤه فانهم فخاره المنمق وعزه المنسق وبحره المصطفق و بدره المؤتلق

ولقد تجلت مودة هذا الشعب الصادق الحر للمغاربة في مواقف مشهودة ففي العقد الاول من هذه الحرب الضروس كان الجيش الرابع في سوريا لايزال تحت قيادة الرجل الحازم المحنك والقائد الهمام زكي باشا وفي ذلك العهد كانت فكرة استنفار امراء العرب وزعمائهم للاشتراك

في الحرب من مبادئ زكي باشا فلما ظهرت طلائع الدروز في دمشق بقيادة زعيمها الاكبر يحيي بك الاطرش سري عن النفوس ما كان علق فيها من الغم وارتاح الناس الى فرسان العرب الدرزية التي نزلت ارض الشام لتثبت للذين لم يتثبتوا بعد ان العرب مصابيح شبت نيرانها ومنار يهتدي به واعلام منتشرة في كل مصر وقطر وانها تتهالك وتبذل مالديها في سبيل صون الوحدة الاسلامية ولقد كان خروج الدروز من كهوفهم الجبلية في تلك المعاقل الرهيبة التي يرتد عنها الطرف كليلا عَلَى اثر استنفار الامير رحمه الله لعزائمهم وحثه اياهم على نصرة الدين ومن غريب الصدف ان الزعيم الاكبر يحيي بك في ذلك الوقت التفت الى حضرة القائد ذكي باشا والى والي سوريا وكانا يشهدان المواكب الدرزية وقال لهما ان تسعين الفا من الدروز بكامل اسلحتهم وعددهم وخيولهم متأهبون في كل ساعة لان يكونوا تحت قيادة هذا الرجل العصامي » واشار بيده الى الامير رحمه الله تعالى

ولقد استوثق حضرة القائد ذكي باشا من هذا الامر وعلم ان لعائلة عبد القادر شأناً وان نورها لايخمد ومصباحها لا يهمد ، ما دام ابناؤها ينهجون مناهج آبائهم وقبل ان يغادر القائد الديار السورية جاء الى الامير معتذرا اليه بقوله « لقد علمت بالتجربة والبرهان ان عائلة الامير عبد القادر هي اخلص الناس لعرش الاسلام وادركت ان ترهات الفاسدين

واكاذيب المنافقين ما كانت مبنية الا على اسس باطلة وقواعد فاسدة »

هذا كل ماذكر نشرناه خدمة للتاريخ وجعلناه خاتمة لهذا الفصل على ان ماقاله يحيي بك الاطرش في امس بشأن الامير علي بقوله زعماء الدروز اليوم بشأن ولديه الاميرين الخطيرين الشريفين محمد سعيد وعبد القادر وهما الروحان الكريمان اللذان اوقفهما نفسيهما على طاعة الله وحب شريعته ونصرتها وخدمه اهل العلم والفضل

ذكر ما للامير من جميل المساعي

لدى امراء العرب

قال تعالى في كتابه العزيز مخاطباً الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم « نحن نقص عليك احسن القصص » والمراد من ذلك قصة يوسف الصديق عليه السلام ، واخبار جهاده في الحياة واقدامه على الصبر في معترك الحوادث الفاجعة القاتمة التي طرأت عليه في هجرته الى مصر بعد ان مكر به اخوته واساءوا اليه وهذه السورة الكريمة التي هي دروس اخلاقية عالية سامية عن الواجبات البشرية لاتبرح الى اليوم عاملا قويا على تهذيب الطباع وتثقيف الاخلاق والنفوس وستغدو هذه السيرة التي هي احسن السير درسا عاليا لايقل تأثيره عن تأثير الدروس العالية التي تشربتها النفوس من محاسن صبر يوسف الصديق عليه السلام

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه ·
طوبى لنفس ادت الى ربها فرضها وعركت بجنبها بؤسها (١) وهجرت
في الليل غمضها حتى اذا غلب الكرى عليها افترشت ارضها وتوسدت كفها
في معشر اسهر عيونهم خوف معادهم وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم
وهمهمت بذكر ربهم شفاههم وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم اولئك
حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون

اي طوبى لنفس الامير التي ادت فرضها الى ربها بخدمتها امته وملته
وبمراعاتها حقوقه ، طوبى لها فقد هجرت في الليل غمضها لتغرس في النفوس
مبادئ الفضيلة ومكارم الاخلاق التي هي من اقصى شعائر الله واجل
حدوده·

ذكرنا فيما تقدم ماتذرع به رحمه الله من الوسائل العديدة لخدمة
الصالح العام وفي هذا الفصل نأتي على ذكر اعماله الحسنة وافاعيله المبرورة
التي قام بها من اجل توثيق عرى الزلفى والوداد بين دولة الخلافة الاسلامية
وامراء العرب وزعمائهم في فجاج سوريا و باديتها

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في كتاب كتبه
للاشتر النخعي لما ولاه على مصر واعمالها حين اضطرب محمد بن ابي بكر
« الصق بذوي الاحساب واهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم

---

(١) اي بحسن صبرها واعتقادها

باهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من امورهم مايتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعاهدتم به وان قل فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف امورهم اتكالا عَلَى جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه

وهذا القول الطاهر الذي قاله امير المؤمنين رضي الله عنه قد انطبع في ذاكرة احد احفاده فسار على منهاجه في مفادنة بيوتات الشرف من العرب والتصق بذوي الاحساب منهم وتفقد امورهم و بذل لهم النصيحة وشارف لطيف شؤونهم وقد ادرك شدة افتقار الدولة الى مصافاتهم وعلم حاجتهم الى مصافاتها فحرم نفسه لذيذ المنام وهجر الراحة واقبل يسعى الى فكرة ربطهم بالدولة لتكون من وراء هذا الارتباط فائدة للاسلام فهجر ربوع الشام هابطا على صحراء سوريا منسلا في العشائر والقبائل والبطون طائفا في الحوالي والضواحي والارباض والمقاطعات ، عاكفا عَلَى زيارة الاكواخ والمضارب والخيام والسرادق داعيا الى تلك الفكرة الحسنة ، والدعوة الصالحة ناثراً من لؤلؤ الخطب عقودا ثاليـا من النصيحة برودا حتى وعت قلوبهم اقواله ، واستحسنت افكارهم اعماله ، فاقبلوا اليه يصافحونه ويخلصون اليه المودة والزلفى ، ويوفون بعهد الصداقة والقربى ولما عرض

عليهم رغبته في الالتفاف حول امير المؤمنين وابان لهم الله ذلك من اصول الدين وانه لاسعادة لهم الا بالاتحاد ، والنكول عن التفرق والانكاد وان سعادة البلاد والعباد موقوفة عَلَى الخلوص لعرش الخلافة التي هي آخر ما بقي للاسلام من الحصون المنيعة والمعاقل الرفيعة طربوا لقوله واثنوا عَلَى عمله ونادوا كلهم بضرورة موالاة الخليفة ومصافاة رجاله وآلوا على ذواتهم وانفسهم الية صادقة عَلَى البر بالوعود والوفا بالعهود والقيام بحماية مصالح المسلمين حق القيام ، كل ذلك ناج باهر لكرم المساعي العلوية ، وجميل المبادئ المحمدية نفع الله الاسلام بها وجعلها في الاعصر التالية قدوة يقتدي بها وغاية يتوسل بها اصحاب الغايات من رواد الفضيلة وطلاب المحامد والمحاسن

الا ان لكل امرئ زادا وخير الزاد التقوى ، فمن حسنت سيرته نال الغاية القصوى والمرتبة العليا

رسائل امراء العرب

١١ محرم — ١٣٢٠

نحمد الباري جل شأنه

الى الجانب السامى ، صاحب المقام العالي ، وكوكب السعد المتلالي حضرة الامير علي باشا وفقه الله وقهر له الاشرار والعدي آمين

بعد السلام والسوءال عن احوالكم ان ماطيه محبك من السعود وحسن الحال كله من نعم ربه الذي لا اله الا هو وقد غمرنا الله بكرمه وصرف عنا شر نقمه فلم يبق في بلادنا روح نضطرب لها او نحذر منها وفي هذا الحين اخذت كتابا من خادمنا عبد الله ذكر لي فيه حسن شخوصكم الينا وشفقتكم علينا وبركم بنا فلا برحت عناية الاله القدير تاجا تكلل رأس الامير ولا برحت مسرات الزمن واسعاده تخدمكم ماذر شارق ولمع بارق وسلام على نبينا محمد المعظم وآله واصحابه اهل الوفا محبكم امير نجد عبد العزيز بن رشيد

رسالة ثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب العظمة الامير علي حفظه العلي · بعد السلام عَلَى الهمام ، وتفقد شريف خاطر سليل العظام ، ابدي للجناب الاكبر ان الباعث الى تحرير هذه السطور هو العلم بما عليه صحتكم من الاسعاد والاطمئنان عن احوالكم لنشاركم في السراء والضراء والبأساء والنعماء هذا ولما شخص شهاب الى حيث انتم كتبت اليكم هذا الكتاب وزودته به واكدت فيه ماينننا من علائق المحبة ، ووثائق الارتباط وبرهنت عَلَى انني رهين الاشارة في كل موقف وحين وانني عبد الطاعة لامفر لي من حبكم الشريف والتعلق بحبال ودكم المنيف اثابكم الله واحسن اليكم · الامراء والزعماء

ع دونكم عاطر سلامهم و بشوق حسن ودادهم وانقيادهم ودمتم مظهراً للرعاية والحماية

المحب المخلص

٩ شعبان — ١٣٢٤ سلطان ابن حمود الرشيد

رسالة ثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الى جانب الامير الخطير

سلام الله عليكم ورحمة الله و بركاته و بعد فان تفقد الخاطر الشريف والجناب المنيف لهو من دواعي الوفاء وشيم العرب العرباء فاسأل باري النسم، ومحيي الانسان من العدم ان يسبغ عليكم سيول انعامه و يحفكم بخيره واكرامه. اما عبدكم فلا يبرح مرموقا بعين الله الحليم محوطا بالاجلال والتكريم، ولقد شخص رجالنا الى التمتع بنور امارتكم الوضاح فزودناهم بهذا الكتاب تأكيدا لعلائق المحبة الموروثة المرجو دوامها وعسى الله يغمركم بنعمائه و يحبوكم بخيره وعطائه

صاحب نجد

الامير عبد العزيز بن الرشيد

٩ شعبان — ٣٢٤ الرسالة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة اجل الاحباب، واوفى الاصحاب عالي الجناب الامير علي باشا الحسني

بعد . . . ان الباعث الى تسطير هـذا الكتاب هو
الارتياح الى ما انتم عليه من الاسعاد ثم ابلاغ جنابكم بما قسم الله لنا وما
اختارنا اليه فقد ناديت بالامارة في الجبل وتوليت الزعامة والرئاسة لكي
اضع حداً لمظالم (النايف)علَى الاموال والرجال وقد فتك بالامير(متعب)
الفتك الذريع ليسلب منه الرئاسـة فاهاب بناظامه الى الخوف والجزع
واوجسنا منه خيفة على انفسنا فما زلنا نقفوا اثره حتى قطعنا خبره فورد
ورود الحمام وقد كنا نسأل الله ان يكفينا شره فكفانا اياه . جعلكم الله
ملجأً نلجأ اليه ونظهر له حسن الانقياد في كل حين ودمتم

١٥ شعبان ٣٣٤ للمحب الاكبر

سلطان حمود الرشيد

الرسالة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب عالي الجناب صاحب السعادة علي باشا المحترم حفظه الله آمين

غب . . نبدي لسعادتكم اننا من فضل الباري جل شأنه
في احسن حال وانعم بال ولم نسأل الا عن صحتكم التي هي غاية القصـد
والمراد من رب العباد وفي هذه الايام الاخيرة حصل التعدي من البادية
فادبنا المتعدين و كسرنا شوكة العاصين وذلك بحسن تعطفاتكم علينا و بما
للدولة من المنة والمحمدة والسلطة والنفوذ ادام الله بقائها واعلَى عـلائها

وغير خفي اننا نتمسك بالاسباب الابلة الى خدمة المسلمين خدمة صادقة كما هو الواجب علينا وقد كتبنا اليكم لنعرب لكم عن حسن طاعتنا وشخوصنا نحوكم في السراء والضراء فالرجاء ان تشملونا بانظاركم ومنـا السلام عَلَى الذات الموقرة ، الامير المكرم والسبهان المعظم يزفان اليكم السلام ودمتم

٢٣ رجب ٣٢٨ وكيل امارة بن الرشيد

زاحل بن سبهان

الرسالة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب . . . دام اجلاله امين

بعد . . . نبدي لجنابكم اننا بفضل الله وكرمه في احسن حال وانتم بال هذا ولا ريب ان خبر اغارتنا عَلَى العصاة وتأديبنا اياهم قد اتصل باسماعكم الكريمة فاننا بحمد الله وبما للدولة من علو السلطان ، وللامة من القوة والشان قد قهرناهم اشد القهر ولا يخفى سعادتكم انـا متمسكون بماثر اباءنا السالفين في بذل الخدمات الصادقة للدولة الرجاء ربطنا بسلك الاصدقاء والمحبين الراجين سلام المسلمين ودمتم وسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته

٢٣ رجب ٣٢٨ الامير سعود بن

عبد العزيز الرشيد

من الحكومة السنوسيه الجليله

بسم الله الرحمن الرحيم

انه من عبد ربه سبحانه احمد الشريف السنوسي الخطابي الادريسي الى فرع دوحة الشرف العالي الوارفة الظلال مدى الايام والليالي نور حدقة الابصار ونور حدائق الازهار الامام الفاضل والهمام الكامل السيد الذي تأتي وفود السعود الى حرمه وتروى اخبار الندى عن كرمه الامير علي باشا بن المرحوم امير المغرب عبد القادر ادام الله مجده و بلغه من كل خير قصده ولا زالت الايام جاربة على حكمه وسائر البلاد معطرة باسمه آمين

و بعد فسلام ارق من النسيم مختوم وختامه مسك ومزاجه من تسنيم فالموجب تسطيره السؤال عن احوالكم الزاهرة وشمائلكم الباهرة لازلتم بخير واذا سألتم عنا فاننا على جهاد وطراد وجد واجتهاد والاسلام ولله الحمد والمنة مؤيد منصور والعدو مرذول مقهور لولا احتياج الجنود الى بعض الامور فنرجو الاعانة والمساعدة الى المجاهدين من اهل الخير والفضل والدين وقد علمتم ماورد في القرآن الكريم قال تعالى « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » وقال الله تعالى « الذين ينفقون

اموالهم في الليل والنهار سراً وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقد صح ان الصديق رضى الله عنه انفق جميع ماله في الجهاد وكذلك بقية الصحابة كل على قدر حاله وان الله في عون العبد مادام العبد في عون اخيه ومثلكم لايحتاج الى تنبيه ولا زلتم منا برأى ومسمع مذكورين في كل مجمع

المقتبس النور القدوسي
احمد بن السيد
الشريف السنوسي

١٥ شعبان ١٣٣٢

هذه هي صور الرسائل التي ارسلها بعض امراء العرب اشارة الى اخلاصهم للأمير وللأسلام وسنذكر في غير هذا الباب فصولا جمة عن مساعيه قدس سره في بعض البلاد العربية لحمل القبائل عَلَى الرضوخ لاوامر الله

الحرب العامة وسمو الامير

كانت الحرب العامة التي نعطي الرأي بها لغيرنا من المؤرخين من بعض البواعث التي اظهرت الامير بمظهر العامل الكادح · كل يعلم ان قسماً غير يسير من مسلمي افريقيا يقاتل ويناضل في صفوف الفرنسويين وان هؤلاء كما اعترف الالمانيون والفرنسويون معا قد حموا بصدورهم البلاد الفرنسوية وحجبوا عار السقوط عن باريس مرات متعددة ولقد اطرت الصحف الالمانية بسالتهم ونجدتهم وصروثهم واقبالهم عَلَى الخطر

وفي الوقت نفسه لم تتردد هذه الصحف عن اظهار ارتياعها من بقاء الجزائريين والتونسيين وغيرهم من الافريقيين على القتال واحبت ان تلافي مغبة هذا الامر وتلاشي ماينجم عنه من الاضرار والخسائر . ومنذ ذلك الحين حصلت المخابرة بين الحكومتين الالمانية والعثمانية بما يتعلق بهذا الشأن وطلبت حكومة برلين من حكومة الاستانة المشور على رجلٍ له نفوذ كبير على الافريقيين فيحملهم عَلَى النكول عن قتالهم ورأت الحكومة العثمانية ان الامر في غاية من الخطورة وان الضرر عظيم اذا لم يحل على صورة من الصور و بعد الاخذ والرد حملت الحكومة العثمانية سمو الامير على القيام بهذه المهمة سيما وان له في نفوس اهالي افريقيا شأناً يتخاذل عن مثله الكثيرون ولقد كان سؤال الحكومة بصورة شديدة يفهم منها حرج الحالة فلم يبق للامير رحمة مجال لتأخير العزم فانصرفت قواه الى هذه الغاية واستعد للسفر الى العاصمة الالمانية . ولما اقبل ميعاد السفر الي عاصمة حلفاء العثمانيين اقيم لسموه في الاستانة احتفال حافل من اجل توديعه وتشييعه اشترك به النظار وكثير من ذوى المقامات العالية والرتب السامية على ان القلم ليعجز عن ابانة ماحدث وربما غيرنا يأتي في المستقبل على اطالة ذكر ماحدث

صاحب السمو في اوربا الشرقية

قطع الامير الحدود العثمانية الى الحدود البلغارية وحين وصوله الى صوفيا عاصمة البلغار قابله على المحطة رجال السياسة فيها وبينهم سفير الدولة فتحي بك وفي المساء نفسه ادبت له مأدبة عظيمة في دار السفارة العثمانية وفي اليوم التالي كان مظهرا لحسيات الشعب البلغاري وعواطفه وقد برخ صوفيا الى بلغراد عاصمة الصرب التي يحتلها النمسويون ثم الى بودابست عاصمة المجر وقد ذكر الامير رحمه الله ما ملخصه عن هذه البلدة العظيمة ولما وصلت الى بودابست حسبتنى في حلم فان القرية التي كانت على حالها المحزن قبل التحاق المجر بالنمسا قد اصبحت مدينة عامرة من كبيرات المدن المتمدنة في اوربا وقد احرزت نصيبا وافرا من النهوض والترقي فتعبدت طرقها وشوارعها واصلحت مبانيها وملاجئها واقيمت فيها المصانع والمعامل والملاجئ والمدارس والمراسح والمراصد الفلكية والاحواض والرياض واقيمت في شوارعها الانصاب والتماثيل والهياكل والمعابد والبيع، يجري في وسطها نهر الطونة تمخر عبابه سفن الملاحة وسفن التجارة وسفن الصيد . اما المجري فيعيش عيشا نزيها خالصا من كل شائبة وهو بفضل اجتهاد النمسوي قد اصبح نشيطاً ميالا الى الاخذ بناصر العلوم والفنون والمجريون بصورة عمومية مترقون في بودابست ترقيا عظيما يؤهلهم مشاركة النمسا بكل

قابليات الحكم وهم يتولجون ادارة المراكز السياسية ولهم مكانة راجحة بالفضل والادب وانديتهم التجارية والعلمية باهرة زاهرة . اما المرأة المجرية فصادقة في وطنيتها وعواطفها و يعتقد المجريون ان استتباب النظام في الاسرة مدعاة الى استتبابه في البلاد وللمرأة هنالك نصيب في مشاركة الرجل باعماله وآرائه ولقد شهدت ان كثيراً من النساء يخدمن في البيوتات المالية الكبرى وفي بعض الدوائر العالية وفي المراكز السامية و بعضهن يتولى ادارة التحرير والتحبير في الصحف اليومية والمجلات الشهرية او الاسبوعية وللشعب المجري ميل الى الحرب وله مطامع موفورة راسخة في صدر كل واحد ممن تظلهم سماء بودابستة الحلوة الصافية اما العرق المجري فهو تتري ينتهي اصله الى الاصول التركية القديمة فهو اخ للشعبين التركي والبلغاري وقد نزح من طوران الى شرق اوربا في اثناء غزواته وحروبه واقام في هذه الجبال والمعاقل حيث اسس قومية لنفسه وحيث امتزج بالشعوب الاوربية معتنقاً الكثلكة ديناً ، هذه هي خلاصة آرائه بالمجريين و برقي عاصمتهم . ولما وصل رحمه الله الى هذه القاعدة الجميلة قابله الرجال السياسيون على المحطة ورحبوا به ترحيباً عظيماً واسرعت رجالات الصحف تتخطف اخباره ، وتتلقف آثاره وفي اليوم نفسه برح بودابست الى فينا عاصمة النمسا

سهرة في فينا عاصمة النمسا

كان وصول الامير الى فينا نهارا وكان الجو اذ ذاك صاحيا ولما انبسطت امامه المدينة لم يتردد عن الاعجاب والدهشة وكان ماراه يوشك ان يكون سحرا فان الحضارة الجبارة العظيمة كانت ترفرف على هذه المدينة الساحرة التي اشتهر سكانها بالرقة واللطف

زار الامير باريس في حياته مرات متعددة فلم تذهله (فارساي) بقدر ما اذهلته ابراج قصر (شونبرن) في فينا ورأى في عاصمة الفرنسيس حضارة يانعة ، ورقيا مزدهرا ولكنه لم ير آية تدل على خلود القوم اما في فينا فقد رأى فضلا عن مشاهد الحضارة والرقي مشهدا صافيا حلوا عذبا هو تماسك شعب هذه العاصمة والتحامه ببعضه واحتفاظه بقواعد الادب والرصانة مع التناهي في الذوق واللطف والرقة وطيب المعاملة وحسن المعاشرة وقد كتب رحمه الله في مذكراته عن هذه القاعدة العظيمة . اما فينا فهي عنوان حضارة الشعب النمسوي النشيط ودليل تكافله وتضامنه و برهان يدل على اجتهاد عائلة هابسبورغ المالكة وتفانيها بخدمة البلاد . اول ما يطل المرء عليها يتجلى له الفرق الكائن بينها وبين العاصمة الفرنسوية باريس . فينا جميلة خضراء ذات اغراس وافنان وغياض ورياض تسبح في طوفان من النور والخضرة ، قصورها وكرماتها

وخلواتها ومنازلها وسهولها وانجادها وروابيها وجبالها ومصانعها ومعاملها وملاجئها ومستشفياتها ودور العلم فيها · كل دليل على التصور الجميل الذي يتصوره الشعب النمسوي بهدو وسكينة · فليست فيها ضوضاء او جرجره والشعب النمسوي رقيق الحاشية اقرب الى القلب من غيره من شعوب اوربا · اما باريس فهي على عكس ذلك مدينة الضوضاء والجلبة والصراخ والبكاء والحوادث وان كانت في حال سعيد من المدنية والعمران والحضارة وعلو الشأن وسمو المكان · لما اصبح الامير في فينا قابلته الجالية العثمانية وعلى رأسها السفير حلمي باشا بالترحاب والتهليل وكان على المحطة البارون (وكلر) رئيس بلديات فينا وحاكم المدينة العسكري وكثير من الاعيان والنواب جاءوا كلهم لتحية الامير الذي يمثل مجلس الامة العثماني بصفته رئيساً ثانياً له و بصفته ايضاً ممثلاً لشخص السلطان الاعظم في مهمته العالية لدى حكومة المانيا

ولقد سير به الى المكان المعد لسموه محوطا بالتعزيز والتبجيل وادبت له المآدب الاكرامية واحتفل به الاحتفال العظيم في النادي الشرقي بحضره العلماء والمستشرقون النمسويون ومراسلو الصحف ومخابروها ولقد كانت مأدبة زاهرة اتت على وصفها ببيان ودقة جميع الصحف النمسوية التي لم تترك محمدة او منقبة لسمو الامير الا ذكرتها في سطورها واظهرتها بين اعمدتها ولم تقتصر هذه الصحف على ذكر الحفلة بل تعدته الى ما هو اجل

فذكرت الامير ويباض اياديه وجميل مساعيه في خدمة العالمين الاسلامي والعثماني وعدته من اكبر العاملين على توثيق عرى المحبة والزلفى بين الشعوب النمسوية والشعوب العثمانية وفي اليوم التالي شارف سموه حفلة اكرامية اقامتها له السفارة العثمانية حضرها اكابر القوم واعيانهم في فينا وبينهم رؤساء بلدياتها ورؤساء جمعياتها ومحافلها السياسية والتجارية وتبودلت في اثناء ذلك خطب التهاني والامتداح من صفات الامير واخلاقه ومساعيه الوفيرة المبذولة في سبيل الاسلام والمسلمين فاجاب الامير قدس سره على الخطب بما هو احلى من الشهد واعذب من المن والسلوى وقد غادر سموه عاصمة النمسويين قاصدا برلين وقدجاء في كتابه عن فينا ما خلاصته :

اما التأثير الذي نالني من زيارتي هذه العاصمة الجميلة فلا يوصف فقد كنت محوطا برعاية شعبها المتمدن الذي عرف الحياة المعرفة الحقيقية ان الشعب الذي لاتنفسح امامه ابواب الحياة ولا يعرف مطرياتها واسرارها هو شعب شقي لا يعمر طويلا اما شعب النمسا الذي تسنت له الغلبة على كل المصاعب والمصائب والرزايا وعرف الحق والحياة وجانبها فانه شعب متعقل ملتحم الاجزاء رغم تباين العناصر فيه وتبلبل السنتهم واختلاف اذواقهم ومشاعرهم وعاداتهم . ذكر نابوليون بونابرت ان الله خلق النمسويين ليخطموا الايتاليين . وهذا صحيح فان المدنية النمسوية

التي هي بنت الفكر ووليدة العمل والنشاط هي التي قادتهم وتقودهم دائما الى اسباب الظفر والفوز وفي التاريخ ادلة دالة على ان النمسويين كانوا في ظروف كثيرة يتغلبون على الايطاليين بعدد قليل منهم وفي الحرب الحاضرة اكبر مصدق لما نقول .

ان الحضارة النمسوية مشيدة القوائم ثابتة الدعائم على العدل فلا افضل لنمسوي على مجري ولا لمجري على اوكراني ولا لاوكراني على روماني الا بسداد الرأي والحكمة ، وتعيش اقوام النمسا في بحابح متسعة من رغد العيش وهم اما مستقلون استقلالا كالمجر وبعض الاقطاع واما هم مستقلون بعض الاستقلال وعلى كل فهم غير محرومين من الحكم الحر الذاتي الذي يطلق ايديهم الى العمل الصالح الحميد .

اما الامبراطور فحبه لشعبه معادل لحب شعبه له وهي مبادلة جميلة يسعد بها الحكام والمحكومون .

اما الحركة العلمية فلا استطيع وصفها والاتيان على بيانها فهي اساس كل نهضة في النمسا والمجر .

سموه في برلين

وصل القطار الى برلين عاصمة المانيا يقل صاحب السمو والعظمة الامير الخطير علي الحسني الجزائري وقد كانت نوافذ القطار محلاة بالاعلام

العثمانية والالمانية ومكللة ببعض الاغصان والافنان النضرة فاستقبله على المحطة جمهور كبير من الالمان و بينهم العلماء والشعراء والسياسيون والخطباء وفي طليعة هذا الجمع الغفير كل من حاكم العاصمة العسكري ورؤساء البلديات والحوالي وكثير من الضباط الكبار و بعض الجنود ثم سفير الدولة محمود مختار باشا فالجالية العثمانية فبعض مسلمي مصر من جماعـة الحزب الوطني فقسم من ار باب الصحافة البرلينية فالمسيو (روتن باف) المجري مدير قلم المطبوعات في بودابست ، فالمستشرق الكبير البارون فردريك رزمن فالكونت فون كروس فعدد من الاشراف والنبلاء من البافيار بين والساكسنيين وبعض رجال دوقية باد و برنسفيك ولما نزل من عربة القطار الخاصة به تقدم كبار الرجال الى مصافحته مصافحة ودية فجعل يتودد الى كل منهم و يصافحهم الواحد بعد الآخر ومن ثم ركب العربة المخصوصة التي اعدتها الحكومة الالمانية لسموه واخذت هـذه العربة تنهب الارض نهبا قاصدة قصر ادلون حيث شاءت مشيئة حكومة جلالة الامبراطوران يكون هذا القصر الفرد تحت امرة الامير طول ايام وجوده في برلين . وقد تبع العربة كثير من السياسيين بعرباتهم حتى اوصلوه بكل تحية واحترام الى قصر ادلون الشهير فانحـدر من العربة شاكرا اياهم وصعد درج القصر محاطا برعاية القوم واجلالهم محفوفا باكرامهم واعظامهم مرموقا فوق تجلة الانسان بتجلة الديان وحماية الرحمن

ضيف ادلون العظيم

لماذا اختارت الحكومة الالمانية قصر ادلون الفخم مقراً لضيافة الامير؟ ولمَ شيد هذا القصر الذي يناطح بابراجه السحاب والضباب ؟ هذان سؤالان نطرحهما امام القلوب الشاعرة والاعين الباصرة فقد تتجلى لها روح الاجوبة السديدة على هذين السؤالين . جواب السؤال الاول هو ان الحكومة الالمانية لم تفتح ابواب هذا القصر في وجه الامير الا لعلو منزلته منها وسمو مكانته من قلبها وحيث ان الواجب الذي يحمله قدس الله سره هو واجب تاريخي حافل بالخطورة والاهمية فقد كان خليقاً به ان ينزل في هذا القصر الذي طالما عقدت في ردهاته الواسعة وقاعاته المنفسحة وحجراته الكبيرة جل الاجتماعات التاريخية حتى يزداد قيمة وتعلو مكانته بين الدور والقصور اما الجواب الثاني فهو ان القصر لم يرتفع بناؤه الا لينزل فيه الامراء واولياء العهود والملوك والسلاطين وقد ذكر الامير فصولاً عديدة عن هذا القصر الذي تجمع فيه معاني الحضارة الالمانية والمدنية الجرمانية قال رحمه الله من فصل كتبه بهذا الصدد :

يمكننا ان نعتبر قصر ادلون شعاراً للعصر الحاضر بل كمرآة للحضارة الحديثة فقد شيد في برلين منذ ست سنوات عَلَى شكل خاص ولقد ضمت اعمدته المرمرية وخلواته الرخامية تذكارات تاريخية جمة وشعرت

جدرانه باصداء الأعياد التي لاتبرح عطورها الذكية منتشرة في كل ركنة من اركانه . يقع هذا الصرح العظيم على مقربة من باب براندنبورغ بما يتاخم قوس النصر المرتفع تكريما لعائلة هونزلرن المالكة فكانه وهو على حالة تلك يحيي ضيوفه العظماء . ولما شيده لورنزوادلون ورفع بناءه اخذ العظماء من الفرنسويين والانكليز والاميركان والروس واليابانيين يهرعون الى زيارتـه فيقفون ماخوذين من الذكاء الالماني الذي اقام هذا الصرح علَى صورة تعجز عنها مدنيات الامس الغابر وان عَلَى طريق ادلون سوف يسير كل الذين سيأتون من بعده فان هذا الرجل الذي يضم الى قلبه شعور الحماسة كان نصف رسام ونصف مهندس ولكنه كان شاعراً كاملا جمع في نفسه كل الذكاء الالماني والشدة البرسيانية وقد اقدم بدون مبالاة او اكتراث على انفاق عشرين مليونا من الماركات في سبيل رفع هذا الصرح المشيد . ولد لورنزو ادلون على شواطئ الرين في مدينة ميانس البديعة فهو والحالة هذه من مواطني النقاشين العظام (فالومهسل) وليدوفيك وهوفمن الذين بنبوغهم وذكائهم وضعوا حالة برلين الحاضرة والبسوها من الجمال الرائع ثوبا معلما لاتتغير بجدته ولا تتنكر روعته ونحتوا لها من الصور والرسوم والانصاب ما اورثها الارجحية علَى سواها من عواصم اوربا الحديثة . ولم يقدم لورنزو على تضحية هذه الملايين العديدة الا بعد ان استصفى مودة الامبراطور بالذات واستخلص محبته وحمايته

والامبراطور حامي الفنون الجميلة والآثار المونقة البديعة في المانيا ويمكن القول ان هذا القصر الشامخ بابراجه لم يترتب بناؤه الا بمراقبة الامبراطور ومشارفته ولقد كان العمل الذي بذله ادلون في هـذا السبيل شاقاً لا تتحمله قوى انسان وكان اول من انتقد هذا القصر البديع الذي هو احدى معجزات العصر الحالي جلالة الامبراطور بالذات ففي اليوم الثالث والعشرين من عام ١٩٠٧ اي قبل حفلة فتتاحه ببضعة ايام زار الامبراطور والامبراطورة قصر ادلون تصحبهما الاميرة فيكتوريا لويز والاميران ادلبرت واوغست وليم وحاشية كبيرة عظيمة استقبلها ادلون بصفتيه اللتين لا تفارقانه ، بصفته نحاتاً مصورا ، و بصفته مؤسساً ومشيدا ودامت هذه الزيارة الى ساعة ونصف وكان الامبراطور يسبر غور الاشياء بتعمق و يسأل عن هذه وعن تلك مأخوذا ليس فقط من جمال الفن وملاحة الهندسة وحلاوة الزخرفة والرواء بل من الذكاء الالماني والنشاط البروسي فالتفت الى لورنزو قائلا كلمته التاريخية الكبيرة « انك ستدهش العالم بامره بعملك الانيق »

في الخامس والعشرين من تشرين اول ادب ولي عهد المانيا المأدبة الاولى في قاعة بتهوفن احدى معجزات قصر ادلون وقد شارف محاسن هذه المأدبة الساحرة اشقاؤه الامراء و بعد ايام قليلة من هذه الحفلة الباهرة اقامت ولية العهد حفله شائقة ايضا فتبع الشعب البرليني

هذه المهرجانات بعين يقظة واخذت ميوله تدفعه الى وجوب الاحاطة باسرار هذا الحصن الحصين وطفقت هذه الميول تتقوى فيه حينما اقام الجيش ليلة ساهرة تذكارا لمرور مائة عام على تنظيم وتأسيس وزارة حربية بروسيا حضرها قسم عظيم من كبار الضباط واقيمت هذه الحفلة في (قيصر سال) اي في حجرة الامبراطور وفي هذه المرة ايضا لم يخف العاهل الكبير رأيه فقال بعد ان طلب من ادلون السماح له بالتكلم : ان الطعام كان حسنا والذي جعلني مسرورا انما هو النظام الذي استخدم في اعداد المائده فيجب ان يكون النظام رائدنا في كل اعمالنا اليس كذلك ؟

ولم يكن في عيني الامبراطور اجمل واحلى من هذا القصر الذي اعد خصيصا لاقامة السهرات العظيمة والاجتماعات التاريخية ونزلا للامراء واولياء العهود في اوربا وسواها من الاقطاع . والحقيقة ان نبلاء المانيا واشرافها وامرائها قد باعوا قصورهم الشتوية في برلين ليقضوا فصل الشتاء في حجرات قصر ادلون التي تضم اليها ثمين الرياش وفاخره . كذلك فان العائلات القديمة في بروسيا تقيم اعيادها وحفلاتها في هذه القاعات التي طالما انبسطت فيها الموائد السياسية وعقدت تحت سقفها المؤتمرات الدولية ولا يجوز قطعيا لغير الامراء المنحدرين من دم ملوكي ان يدخلوا الى هذا القصر العظيم الذي نأتي على اسماء ضيوفه بصورة ملخصة :

جلالة الامبراطور والامبراطورة واولياء العهد ، الامير هنري البروسي ، ولي عهد بافاريا ، الدوق البرت دي ورتمبرغ ، وزراء المالية والحربيـة والبحريـة والمستشارون ، البرنس بلبوف المستشار القديم ، فون هلوغ المستشار القديم ، الكونتس دي لندروف ، فون كوتز امراء واولياء العهد في مملكة الساكس وورتمبرغ و بادو امراء العائلة المالكة في النمسا الخ

هذا هو قصر ادلون الذي نزل الامير فيه ضيفا فساوى مجده مجد الامراء المتقدم ذكرهم ولا بدع فان دمه ملوكي شريف ويكفيه انه حفيد الرسول الحبيب عليه السلام

الاحتفال العظيم بالزائر الكريم

لم يكد ينتشر خبر قـدوم الامير الى برلين بجماعة من علماء البلاد السورية وافاضل البلاد العربية حتى هرع النبلاء والاشراف يفدون زرافاتٍ ووحداناً الى قصر ادلون للسلام عليه وقد كان بين الذين زاروه في مقره عدد غفير من اساتذة جامعتي برلين ومونيخ وقسم غير يسير من المستشرقين وفي الردهة الفاخرة المخصصة لسموه شرع الجميع يتناقلون الحديث و يتبادلونه و يقصرن على الامير ارتياحهم الى وجوده في عاصمتهم بهمة عظيمة من شأنها ان تعود بكبير فائدة على العالم الاسلامي الذي تواليه المانيا وتصافيه وتطلب اسعاده ورفاهيته وتخليص شعوبه من بين

براثن الاستعمار بين المنافقين الذين لم يراعوا قواعد الشرف ولا واجبات الانسانية فاغرقوا في ظلمهم واوغلوا في اعتسافهم دون ان يعتقدوا بالنتائج الوخيمة والعواقب الاليمة التي تلي هـذا الظلم او بيل ونهض الاستاذ مولار احد اساتذة جامعة برلين واثنى على محامد آل عبد القادر وعن صفاتهم وخلالهم الحسنة التي دعتهم الى الثبات امداً طويلا امام جيوش فرانسا ثم رحب ترحيبا خاصا بالسيد الامير وقال ان زيارته تجدد ذكرى الولاء بين الامبراطور والمغاربة البواسل واشار الى تصريح جلالة غليوم الثاني في مـدينة طنجة حيث جهر انه صديق عام للعالم الاسلامي ، وصديق خاص للشعوب المغربية والخلاصة ان الاحتفال كان بالغاحد الاتقان والازدهار

الامير والامبراطور

ظل الامير مدة طويلة في المانيا لم تعقه في اثنائها العوائق عن زيارة الصروح العلمية فيها ولا الجامعات العالية والمصانع التجارية والمعامل العسكرية والملاجئ والبيوتات والقصور والمراصد والمراسح ومتاحف الآثار والعاديات وكان في كل زياراته هذه مقراً بما للأمه الالمانية من السبق في الحضارة والتمدين علَى بقية الامم الغربية وكان كلما دخل معرضا او متحفا او جامعة يلاقي من الشعب الالماني ذلك الميل الغريب والعطف

الحقيقي وقد اسرع مراسلوا الصحف اليومية الكبرى الى اخـذ رسمه مع رجاله الذين جاءوا بصحبته الى المانيا وقد كانت لهذه الصحف لهجة خاصة في كتابتها عنه فلم تكتم ماخالجها من الشعور الرقيق بازاءه وذكر في بعضها ان في زيارة سليل عبد القادر برلين معنى كبيرا فوائده لاتقدر وهي اكبر من النتائج الظافرة التي تلدها معركة هائلة ينتصر بها على العدو لاننا قد قضينا عَلَى اخر امل للعدو الذي ما برح يواصل اكاذيبه بحق عائلة عبد القادر مدعيا انضمامها اليه فنحن نحيي دفعة واحدة الاميرين من ابناء عبد القادر عبد المالك الذى يقاتل عدوتنا في صحاري المغرب والامير علي الذي برهن بقدومه الى برلين على اعجابه بالرقي الالماني والعلم الالمان والفن الالماني

في اليوم التاسع من شهر شباط ١٩١٥ ارسلت السفارة العثمانيه في برلين رسالة خاصة الى قصر ادلون باسم الامير علي باشا وقد جاء في تلك الرسالة مايأتي :

سمو الامير المحترم

تقرر اجتماعكم حوالي الساعة الحادية عشرة ونصف من نهار الغد بجلالة الامبراطور وذلك في قصر دي بيلوف فاتمنى حضوركم الى دار السفارة السنية حوالى الساعة الحادية عشرة ودمتم

السفير الاعظم

محمود مختار

تناول سمو الامير الكريم هذه الرسالة بيده الشريفة وقرأها ثم نهض لاعداد الالبسة الرسمية اللازمة التي تقتضيها زيارته للامبراطور غليوم وفي اليوم التالي ركب عربة القصر الفاخرة حيث اوصلته الى دار السفارة العثمانية وكان اليوم صاحيا صافيا فاحتفل السفير به احتفالا جما وخرج الى موافاته جميع الموظفين بالبستهم الرسمية يحيون فيه ممثل الخليفة الاعظم وحامل سلامه الزاكي الى جلالة حليفه الاكبر غليوم الثاني امبراطور المانيا وملك بروسيا وكان سموه يحادثهم بكلام رقيق اصفى من الكوثر بل هو اندى واطهر ولم يمكث امدا قصيرا في السفارة حتى اقبل ميعاد ذهابه الى قصر بلوف فركب العربة الخاصة وركب بجانبه السفير ولحق بهما كثير من الحاشية وكانت الجماهير في الطريق تتطلع اليه وتناديه باحب الاسماء وتهتف له هتافا حارا حتى بلغ قصر بلوف

المقابلة التاريخية

ان امراء براندنبورغ وامراء الساكس وورتمبرغ لم يبلغوا بمجدهم الاسمى قسما من مجد هذه الاسرة العريقة بالمجد والشرف اسرة عبد القادر بن محي الدين ونريد ان نقول انه ليس في المملكة الالمانيـة من العائلات من تأخـذه الاريحية الى منازعة الامير بسمو المكانة و بعد

الصيت وجلال الأسرة وعلو المرتبة والشأن وانى لهوءلاء ان يدركوا مدركا ناله ابن الرسول وسليل البتول فمن اجل هـذا الشرف الاثيل والمجد الباذخ الطويل كانت حركة قصر بلوف قائمة قاعدة وكان النبلاء والامراء وذوو الالقاب في النوافذ وعَلَى الشرفات يتطلعون الى موكب الامارة الذي تشيعه قلوب وعيون وقـد خرجت كوكبة من الحرس الامبراطوري الى ابواب القصر حيث ربضت متهيبة في موقفها ولما اخترقت العربة باب القصر المؤدي الى باحاته المنفسحة الرحيبة كان هتافهم عاليا وجعلت العربة تمري فوق بلاط الساحة حتي وقفت الي جانب درج القصر فنزل سمو الامير يساعده عَلَى نزوله بعض رجال القصر وفي مقدمتهم حاجب الامبراطور الخاص ثم سير به الي قاعـة الشرف حيث ينتظر جلالة الامبراطور غليوم مقدمه وزيارته

لايستطيع الانسان مها اوتي من حلاوة البيان وطلاقة اللسان ان يأت عَلى وصف هذا الحماس الكبير الذى سكرت منه العاصمة الالمانية يوم زيارة سليل الرسول وابن الملوك والامراء لقصر بلوف الملكي الذي لمعت فيه انوار آل هوهنزلرن وسادات براندنبورغ عَلى ان امجاد العائلة القادرية لم تبرق اشعتها في سماء برلين المكفهر الا لتفاخر امجاد آل هوهنزلرن وسادات براندنبرغ اذ انحدر منها السادة الاقيال والامراء الفحول الذين نشروا راياتهم في طلول السعد الهنية الممتدة مابين مراكش

وتونس والجزائر وطرابلس الغرب والتي خلفت من مآثرها الجيدة في الاقطار الاندلسية ما يذكره التاريخ العام فخوراً . فاذا استنفرت محامد فردريك الاكبر آل هوهنزلرن واهابت بها الى الفخر والتكبر فان محامد بني هاشم وفضائلهم لتهيب بآل عبد القادر الى ماهو ابعد من ذلك لانهم كما قال الشاعر

من بني هاشم وذاك افتخار　　زاد في فخرهم بنو عباد

فتية لم تلد سواهـا المعالي　　والمعالي قليلة الاولاد

اجل فان لبني هاشم التصاقا ببني عباد الذين حكموا في الاندلس وفي المغرب . ولسنا الآن في مقام تطرح به المحاسن والمحامد والعادات والاخلاق والشيم والهمم حتى نملي الكائنات ضجيجا وعجيجا بمدائح آل الرسول وحسبنا أن نقول ان مجد آل هوهنزلرن يرجع الى اربعين سنة فقط وان المانيا تمشي في اثر هـذا المجد على حين ان مجد السلالة القادرية يرجع الى قرون واحقاب وان مدنيات الانـدلس وتونس والجزائر ومراكش وبغداد والشام تمشي وراءه تقتبس حياتها منه وتستضيء به

ولما ادخل سمو الامير على الامبراطور تقدم بكل تؤدة وهدو من جلالته غير هياب ولا وجل ولم تأخذه تلك الرعشة التي طالما يشعر بها الكثيرون عند ملاقاة العظماء والكبراء ، وحصل التعارف بين صاحب السمو وصاحب الجلالة بواسطة السفير فاشار القيصر ويلهم الى الامير

بان يجلس الى جانبه ثم اخذ يسأله بعض اسئلة عن البلاد العثمانية وعن جلالة السلطان فكان سموه يجيبه بكل هدو ثم قدم لجلالته سلام امير المؤمنين فابتسم الامبراطور ابتسامة عذبة وقال اشكرك كثيرا على توسطك بيني و بين جلالة حليفي المعظم على هذه الصورة الحبية

وقد بقيت المقابلة مدة اربعين دقيقة كان الامير في خلالها مظهرا للرعاية والاجلال والاعتبار حتى برح القصر مشبعا باكرم ماتبديه الحاسات النبيلة والعواطف الرقيقة الشريفة . وفي المساء نفسه دعى سموه الى مأدبة شائقة اعدتها وزارة الخارجية تكريما له وقد كتبت الصحف البرلينية عن زيارته المقالات الضافية وعقدت (الغازيت دي فوس) و (الغازت دي كولون) وجل صحف برلين الكبيرة فصولا خاصة بالامير اتت فيها على امتداح مزاياه واخلاقه وتفانيه في خدمة دينه ووطنه وسهره لليل والنهار ساعيا وراء انجاح مقاصد الاسلام واتمام غاياته ومما ذكرته بعض الصحف انه رجل لا يعرف السأم من الجد والسعي وانه بينما يتجلى امام العالم في افريقيا بين المجاهدين اذ بك تراه في صحراء سوريا وجزيرة العرب داعيا الى التمسك بعروة الدين و بينما هو في اقصى جزيرة العرب اذ به في فينا او في برلين وفي كل الصور التي يراه المرء عليها كان صادقا في خدمة ديانته امينا بحبه لامته

زيارة اسرى المسلمين

مشهد يمثل تأثير آل الامير عبد القادر

لم يكد سمو الامير العظيم يرتاح في قصر ادلون حتى تذكر واجبه الاقدس فنهض الى اتمامه كأنه اصبح لا يجد لذة الا في عناء الواجب وسافر حالا الى مدينة هامبورغ وفي اثناء اقامته في هذه المدينة تلقى رسالة من ناظر خارجية بروسيا المسيو بيلو وهذا نص الرسالة ، هامبورغ ١٦ يناير ١٩١٥

سمو الامير

اتشرف بابلاغ الجناب العالي ان جلالة القيصر والملك المعظم قد كان مبتهجا مسرورا من تبليغكم لجلالته يوم امس سلام جلالة السلطان المعظم و بناء على ذلك فقد امرت من قبل جلالته ان اقدم لجنابكم سلامه القيصري وتشكراته الملكية

بيلو وزير خارجية بروسيا

فمن نص هذه البرقية يفهم الانسان مبلغ احترام عاهل الالمانيين لابن الامير عبد القادر الكبير وبعد ان مضى ردح من الزمن قام الى تفقد شؤون هذه المدينة الساحلية التي اصبحت تجارتها في العالم في نمو وتكاثر عجزت اكبر الموانى الاوربية عن ادراك مثله

وهامبورغ هذه اشبه بمملكة مستقلة فقد اعطيت لها من قبل القيصر حرية الحكم تحت حماية بروسيا و يعيش اهلوها في بحابح العيش الرغيد ونعمة الاستقلال الجيد دون ان يحيدوا عن ولاء امهم بروسيا التي تحميهم من الاعتداء وتصون تجارتهم ومرافقهم الواسعة ومصالحهم ومكاسبهم التي لاحصر لها ولا عد . ولقد شارف الامير بنفسه حركات المعامل والمصانع وانصباب العمال على اشغالهم بجدرنشاط وكان قد رأى معامل النسيج والاقمشة ومستودعات الاسلحة والبارود ومدخرات الطيارات والمدافع وامكنة العجائب والغرائب كما انه شهد حركة الميناء قائمة قاعدة والناس في انهماك باعمالهم اليومية لا يفكرون بسوى واجباتهم الحقيقية في مثل تلك الاحوال والظروف وتمكث رحمه الله في هامبورغ وقتا طويلا كان في خلاله موضع عناية حاكم المدينة وغاية اعجاب الاهالي بصورة عامة حتى برحها الى العاصمة الالمانية لزيارة مقر اسرى المغاربه الذي بنته الحكومة الالمانية في (زوش ويلسدروف) وهي ضاحية تبعد عن برلين مسافة ساعة تقطع بالسيارة (الاوتوموبيل) وقبل الوصول الي هذا المقر كان الاسرى لايعلمون بامر زائرهم الكريم لذلك كانت دهشتهم عظيمة حين اطل عليهم بانواره المباركة ولما نودي باسمه فيهم صعقوا وانكمشت نفوسهم واصبحوا كأن عَلَي رؤسهم الطير

كان عدد الاسرى الجزائريين والتونسيين والمراكشيين اربعة عشر الفا وقد سقطوا في ايدي الغالبين بعد دفاع هائل وقتال رهيب اعترف الالمانيون بشدته وخطورته وقد كانوا يحاربون بدون مبالاة واكتراث وهم موقنون بانهم يأتون واجبا محتما في استبسالهم وجهادهم ضد الالمانيين وما ذلك الا لأن المستعمرين كانوا قد تمكنوا من خداعهم فزينوا لهم الاباطيل والاكاذيب واكدوا لهم انهم يحاربون المانيا عدوة الاسلام الالدى وقد ضربوا صفحاً عن ذكر الحقائق فلم يذكروا الاسباب التي اثارت هذا المعترك القاتم والمذبحة التي اوشكت ان تأتي علَى نصف البشر · فلما ان تأثير دخول الامير عليهم كان عظيما والحقيقة ان سكوتهم قد طال امره واصبحوا لا يعقلون شيئا وضاقت صدورهم وجعلوا ينظرون الى ابن سيدهم ومولاهم نظر الحنان والحب ثم تمكثوا برهة علَى هذا الصمت حتى اضربهم الذكر والحنين فترقرقت دموعهم في تلك الاعين التي لم يروعها مشهد الحرب الهائل ونكسوا بابصارهم اذلاء مطمئنين ثم اخذوا يتقربون من السيد ويتبركون به ويلمسون ذيول ثوبه ويلثمون يديه حتى ان فريقا منهم ذهب الى تقبيل قدميه · لا يستطيع انسان ان يأتِ علَى وصف حالة الشعوب المغربية الروحية بتمامها ولن يتسنى لغير اكبر علماء الاخلاق والاجتماع معرفة ما يؤثر على احوال هذه الشعوب الجموحة العصبية التي تستفزها للغضب اقل العوارض المهيجة ويستنفر مشاعرها الى التحمس ادنى الطوارئ

اجل من الصعب ان يدرك الانسان غوامض هذه الحالة النفسية لان الشعوب المغربية المتعصبة التي تهرق آخر نقطة في سبيل دينها ولا تنقاد ذلا الى الاجنبي ولاتنكس رأسها خضوعاً تظهر ضعيفة مخذولة القوى امام واحد من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد ذكرنا في غير هذه الفصول ما في قلوب هؤلاء من الحب لعائلة عبد القادر فظهورهم في هذه الساعة بذلك المظهر لايعد امرا غريبا . ثم ان لعائلة الامير عبد القادر تأثيرا خاصا في نفوس هؤلاء فقد تذكروا حين اطل الامير عليهم امجادهم القديمة ومواقفهم الجليلة ومعاركهم التي كانوا يخوضون غمارها في سبيل اعلاء كلمة الاسلام يقودهم الى مواطن الشرف ذلك الرجل العصامي صلاح الدين الامة الافريقية بلا نزاع الامير عبد القادر وقد كان بينهم شيوخ شهدت جليل المواقع الى جانب هذا البطل فاراقت دمها ودمعها لكي لاتدع الفرنسويين مجال التسيطر على بلادهم واوطانهم

ولما عقل الامير امرهم وادرك مابهم قال بصوته سلام يا اهل الجزائر وتونس ومراكش

وفي تلك البرهة تململ جمعهم كمن نشط من عقال وانقطع من بينهم ذلك الصمت المحزن وساد فيهم الهرج والمرج وصرخوا صراخا عاليا طبق الفضاء

السلام على السيد . السلام على السيد

ثم سكتوا سكوتهم الطويل وتطلعوا الى ابن مليكهم وسلطانهم كأنهم ينتظرون منه وحيا ساميا او كلاما عاليا اما الامير فانه وقف في وسط جموعهم المتكاثفة والقى عليهم خطابا مؤثراً قرح عيونهم ومزق قلوبهم وقطع مشاعرهم وقد جاء في خطابه وصف الدسائس والفتن التي بذر المستعمرون بذورها للتفريق بين الشعوب الاسلاميه وعرفهم ما كان خفياً مكتوما وابان لهم اصدار الخليفة الفتاوي الشريفة بالجهاد الاكبر ضد اخصام الخلافة واخصام حلفائه واوضح لهم ان الدولتين الالمانية والنمسوية متفقتان مع دولة الخلافة والجيوش الاسلامية وان قيصر المانيا الكبير هو حليف جلالة السلطان وصديقه الحميم ·

هذا ملخص ما القاه سموه على اسماع الاسرى وقد اتى رحمه الله على وصف التأثير العظيم الذي خالجهم حين تلاوة خطابه فلم نر بدّاً من اعادة ما كتبه قدس الله سره بصورته قال :

ولقد تعجبوا كل العجب مما سمعوه وقرعوا (١) اسنانهم وعضوا انواجذهم غيظا وحنقا وقالوا اننا لم نكن نعلم ذلك ولا تبلغنا امر الخليفة بالجهاد الديني وقد ساقنا الفرنسيس بالعنف والشدة عن غير رضاء منا ولا اختيار

---

(١) ذكرت ذلك جريدة العدل الصادرة في الاستانة

الى بلاد لا نعرفها لنحارب فيها اقواما لا نعرفهم ولو كنا نعلم ماصبرحتم به الان وجلوتم به عنا غياهب الظلمة والضلال لما غادرنا بلادنا ولا حاربنا في صفوف جيوش تحارب الاسلامية ونصرائها لاننا نعلم انه من حارب الجيوش المحالفة للخلافة حارب الخليفة ومن حارب الخليفة فكأنه خرج عن الدين ومن خرج عن الدين مات كافرا وحاشا لمسلم ان يرضى بان يعتنق الكفر بعد الايمان والغي بعد الرشد والضلال بعد الهدى

ونهض من الاسرى خطباء ابانوا في الخطب التي القوها باللغتين الفرنسوية والعربية شدة تعلقهم بالرابطة الاسلامية والجامعة المحمدية وانهم لم يشهروا سلاحا ولم يشهدوا كفاحا الا لانهم يجهلون اعلان الجهاد المقدس في سائر انحاء الارض واظهر هؤلاء الخطباء ان جميع الاسرى مستعدون للرجوع ثانية الى القتال فيقاتلون الفرنسويين الى جانب الالمانيين ويسفكون دمائهم في اية ساحة من ساحات القتال فاجابهم قائد موقع الاسرى العام بخطاب ممتع بليغ اثنى فيه على امتداحهم وشكرهم وذكر ان الحكومة الالمانية لم تحسن مجاملتهم ولم تعاملهم معاملة ممتازة عن معاملتها للاسرى الفرنسويين الا لكونهم يدينون بالاسلام وبعد انتهائه من الخطب اجريت حفلة دينية قرأ فيها بعض المغاربة ما تيسر من القرآن الكريم . ولما اعلن سمو الامير عزمه على مفارقة مركز الاسرى ضج هؤلاء وطلبوا اليه البقاء بينهم او اطلاق سراحهم

ليعودوا الى خوض الغمرات تحت قيادته وزعامته فشكر لهم الامير هذه الحماسة وقال لهم ان واجبا مقدسا غير هذا الواجب سيدعوهم في الآتي القريب الى القتال في ارض غير هذه الارض وتحت سماء غير هذه السماء ولما سألوه عن الارض والسماء اللتين ذكرهما في قوله اجابهم هي ارض الوطن وسماؤه . فكان هتاف الفرح والجذل المتصاعد من قلوبهم في ذلك الحين لا يوصف وغادرهم الامير مشبعا منهم بالاكرام والاحترام .

وقد ذكر رحمه الله شيئا غير يسير عن حالة هؤلاء الاسرى ومما قاله ان للحكومة الالمانية عناية كبرى بهم نظرا لصداقتها للامة العثمانية والولاء الوثيق العرى الكائن بين حشمة الامبراطور وجلالة خليفة المسلمين وامير المؤمنين ومن عنايتها بهم انها اسست لهم جامعا ومنارة مرفوعا عليها العلم العثماني يؤذنون في المنارة و يدعون اخوانهم الى اقامـة الصلوات الخمس وشيدت لهم حماما كبيراً على الطراز الشرقي للاستحمام و بنت لهم مساكن من الخشب منظمة على اتم نظام ومدفئة بالمدافئ الفنية وعينت لهم اطباء مخصوصين يتفقدون احوالهم الصحية من حين الى آخر ولم تكافئهم الحكومة الالمانية ازاء ذلك بعمل ما بل استحضرت لهم ثلاثة آلاف نسخة من القرآن الكريم ولذلك فهم يقضون اوقاتهم بتلاوة كلام الله والاستمداد بروحانية رسوله صلى الله عليه وسلم ان يهب النصرة لجيوش الخلافة

الأسلامية وجيوش حلفائها وان يحق بسيف قدرته وعظمته رقاب الامم الطاغية التي تكالبت على الاسلام وحلفائه ولم تهمل الحكومة الالمانية امر اطلاعهم على سياسة العالم وسياسة الامم

الامير فوق معسكرات العدو

الساحة الغربية

في اليوم التالي زار الامير ساحة الحرب الشرقية يصحبه بعض كبار القواد وبعض مراسلي الصحف وقد سر كثيرا من اقترابه من خطوط الحرب الاولية وامتدح من النظام السائد في الاعمال والحركات . ثم غادر الساحة الشرقية الى الساحة الغربية وفي هذه الساحة امتطى سموه بكل شجاعة وجرأة غارب احدى الطيارات الالمانية فحلقت في السماء فوق معسكرات الفرنسويين التي يكثر في صفوفها المراكشيون والتونسيون والجزائريون فالقى من الفضاء منشورا عربيا ليقرأه هؤلاء المسلمون وقد شهد راصدوا الطيارة ان المنشور المذكور قد سقطت نسخه الوفيره في تلك الجموع الافريقية

ولم يقتصر القاء هذا المنشور على طيارة الامير فقط بل ان الطيارات الالمانية قد حلقت في مختلف الضواحي والاقطاع من الساحة الغربية والقين بالمنشور الكريم وقد كان الامير رحمه الله تعالى قد كتبه في برلين

ووزعه عَلَى الامة الالمانية اثنى فيه عَلَى اطراء الامة الجرمنية وامتدح بسالة جنودها البحرية والبرية ثم وصف مظالم اعداء الاسلام والحاقهم الاذى والاضرار بالشعوب الاسلامية التي القاها نكد طالعها في ايديهم واختتم منشوره عَلَى هذه الصورة : نظراً للتعدي الذي نال الامة الاسلامية من قبل دول الاستعمار مدة عصور مديدة اصدر جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكرم بموجب ارادته السنية فتوى الجهاد المقدس وبهذه الصورة دعى كل مسلم لمحاربة اعداء المسلمين والهجوم على مستعمراتهم وقد لبى المسلمون نداء الخليفة الاعظم احسن تلبية وسارعوا في بلاد الشراكسة والعجم والاكراد وافريقيا للجهاد وهجم السيد الشريف السنوسي بجيوش المجاهدين الكرام من الغرب وزحفت الجنود الاسلامية من الشرق لتخليص بلاد العرب وهكذا اصبح العدو بين نارين وقد اعلن اخي عبدالمالك امير فاس ومعاونه السيد الرسولي الجهاد في مراكش واحرزا الظفر الباهر على العدو واجتاحا القسم الاوفر من الاقطاع وكذلك حبيب الله خان فانه اعلن الجهاد على الحدود الهندية وبهذه الصورة ستنال كافة الممالك الاسلامية حريتها ويصبح العالم الاسلامي عالما حراً عظيما ولما كان وزراء الاسلام واقفين عَلَى دسائس المستعمرين وعالمين بمكائدهم ساروا بالحركات الحربية سيرا جميلا وانا احد اولاد السيد الامير عبد القادر سأدخل عما قريب في الجهاد حاملا بيدي لواءه الشريف . وفي

ذلك الوقت ترون حال الاعداء وكيف يولون الادبار مقهورين مخذولين وعندها ينسحب كافة المسلمين الموالين للمستعمرين الى الوراء والاشتراك في الحرب امتثالا لامر دينهم واختم قولي راجيا للشعوب الاسلامية ظفرا باهرا وفوزاً مبيناً ١٩١ كانون ثاني سنة ١٩١٥ الرئيس الثاني

لمجلس الامة

الامير علي

ولقد صدرت صحف برلين في اليوم التالي حاملة بين تضاعيف سطورها وصف الضوضاء والجلبة التي احدثها هذا المنشور في صفوف الفرنسويين الطافحة بالجزائريين ومما قالته هذه الصحف ان المغاربة شرعوا يتواثبون على الفرنسويين لتخليص المنشور منهم حتى ادركوا المبتغى ونال كل منهم مانوخى واذ قرأوه وامعنوا فيه نظرهم نهدوا نهد الراحة واخذ بعضهم يمرق من الصفوف تاركا اسلحته واسلابه فادرك الفرنسويين عظم الخطر الذي يتهددهم من التحفز الجزائري ولكنهم لم يجبوا ملافاة هذا الخطر بالقوة لان استعمال السلاح في مثل تلك الظروف يؤدي الى سفك الدماء بين الفريقين المسلحين ولذلك اخذوا يتزلفون اليهم و يبذلون لهم الوعود والاماني فما حرك ذلك منهم ساكنا واستقلوا في الخروج من بين صفوف اعداءهم واستعملوا قوة السلاح فايقن الفرنسيس انه لا بد من اراقة الدماء واذابة المهج واهلاك الارواح والنفوس فسددوا حرابهم الى صدور رفقائهم

في السلاح وصوبت مدافعه «المترايوز» السريعة الاطلاق الى جهة اولئك التعساء الذين اسخطهم انهم يقاتلون الى جانب عدو دينهم بواسطة الخداع والمكر ولم تمض برهة حتى ظهرت نتائج تلك الحراب في صدور القوم وابدى المترايوز مفعوله الهائل العجيب فسقطت الرجال صرعى عَلَى حضيض الارض مضرجة بدمائها الذكية وكان استبسال الجزائريين والتونسيين والمراكشيين غريبا لم يشهد مثله ولولا مداخلة جيوش الانكليز ومسارعتهم الى تبديل هؤلاء الجنود بآخرين من جنودهم لتحرج الموقف وصعب الحال . هذه هي خلاصة ما اتت عليه صحف المانيا اما صحف سويسرا فقد روت هذا الخبر وزادت عليه ان الفرنسويين لم يستطيعوا ان يخمدوا لهيب الثورة في معسكر الافارقة الا بعد ان جاءوا اليهم بعلماء الاسلام الروحانيين من افريقيا

رجع الامير قدس الله سره من ساحة الحرب الغربية الى برلين بعد ان اطرى القواد الكبار شجاعته واستبساله واقدامه عَلَى امتطاء غارب الطيارة بكل جرأة . وقد ازمع على مبارحة برلين الى الاستانة بعد ان قام بواجبه خير قيام فارسل الى الامبراطور برقية يستأذنه فيها بالسماح له بترك العاصمة الالمانية ثم شفع برقيته بهذا الكتاب الذي نأتي على صورته :

لمقام جلالة قيصر المانيا وملك بروسيا المحبوب دام عزه واجلاله

اقدم لاعتاب جلالتكم عظيم تشكراتي القلبية عَلَى ما لقيته من الحفاوة والتكريم

مدة وجودي في عاصمتكم العظيمة وفي الوقت نفسه اشكر الامة والحكومة الالمانيين اللتين ادهشني نظامهما في الداخل والخارج ولا يسعني في مثل هذا الموقف الا ان اوضح اعجابي من التدريب والتنظيم العسكري الذي ترنع المانيا في بحابحه فاسأل الله تعالى ان يجعل النصر مصاحبا لجلالتكم ولجنودكم الباسلة ولامتكم الظافرة وللوزراء العاملين الساهرين على مصلحة البلاد وان يؤيد كلمتهم و يجعلها كلمة عليا و يرمي باعدائكم الى حضيض الخسار والانكسار . انني رأيت الامة الالمانية تمتاز عن غيرها بحب الوطن وحب الامبراطور العظيم المذلك ابارك لجلالته بمثل هذه الامة الباسلة وادعوا لعائلتكم ولجلالة الامبراطور والامراء واقدم احترامي لاعتابكم العالية وثقوا انني مرتبط باوامر جلالتكم ارتباطي بحب امتكم الساهرة الشابة

المخلص للسدة الامبراطورية

المفخمة الامير علي

اظهر الامبراطور حين تلاوة رسالة الامير رغبته الحارة في بقائه عدة ايام في برلين مسرورا من حلاوة شعوره ورقة عواطفه وجمال رسالته ولكن سموه اعتذر بواسطة كبير الحجاب واكد ضرورة سفره الى العاصمة الاسلامية . وفي اليوم التالي برح برلين قاصدا الاستانة بعد ان شيعه على المحطة كثير من نواب المانيا واعيانها ووزرائها وحاجب الامبراطور الخاص

سمو الامير في العاصمة العثمانية

تصريحاته — آراء الصحف به

لاحاجة بنا الى ذكر الاحتفالات العظيمة التي لاقاها الامير في عودته الى الاستانة فان الاتيان على وصف هذه المهرجانات تقتضى له صحائف خاصة على ان الصحف اليومية في سائر البلاد العثمانية قد اتت على ذكر ماحدث بصورة مطولة احاط الكثيرون علما بها ،لم يكد سمو الامير يتنهد تنهد الراحة في فندق (بيرا بالاس) الفخم حتى اسرع مراسلوا الصحف العثمانية لاستطلاع ارائه الخاصة في الاحوال الحاضرة والوقوف منه على تفاصيل رحلته الى المانيا وقد ذكرت جريدة العدل في عددها الصادر يوم الخميس ٣٠ جماد اول ١٣٣٣ الموافق ١٥ نيسان ١٩١٥ ما يأتي :
ذكرنا في عددنا الماضي خبر قدوم الامير الخطير والمجاهد الكبير علي باشا الجزائري الرئيس الثاني لمجلس الامة واشرنا الى مسارعة العظماء والكبراء والاصدقاء للسلام عليه وقد قابلنا سموه وجرى بيننا حديث عن سياحته في برلين وما لاقى بها من الحفاوة التي هو اهل لها

هذا ما قالته جريدة العدل بشأن الامير وقد نقلنا في غير هذا الفصل قسما من تصريحاته المذكورة وهاك القسم الباقي :

العدل — هل ترون امد الحرب يطول

الأمير — ان طول أمد الحرب امر لا يعلمه الا الله ولكن الذي اراه انه سيطول لان الدولة الالمانية وحلفائها مصرون كل الاصرار على الحرب حتى النهاية وللعدو مثل هذا التعنت والعناد والحقيقة الراهنة التي لا ريبة فيها ان الامة الالمانية حقيرها وكبيرها ، غنيها وفقيرها ، رجالها ونساؤها، شيوخها وفتيانها مستعدون لمحاربة الاعداء بكل بسالة واقدام وكلهم موقنون معتقدون ان الغلبة ستكون لهم على اعدائهم وان الامة الالمانية ستخرج مع حلفائها حاملة اكاليل الفوز والظفر تخفق فوق رؤوسهم رايات المجد والفخر

العدل — كيف رأيتم الجيش الالماني وكم تقدرون عدد ابطاله المحاربين

الامير — اثبتت الحرب الحاضرة ان الامة الالمانية من اشد الامم عزما وحزما واسدهم رأيا وامتنهم ارادة كما انها اثبتت ان الجيوش الالمانية بقوادها وامرائها وضباطها وجيوشها اتم الجيوش نظاما واكثرها استعدادا وانتظاما واعظمها غيرة وحمية ووطنية وان الجيش الالماني هو اقوى الجيوش بأسا واشدها مراسا وهو الجيش الذي يقتحم غمار المنايا ويخوض المعامع لا يهاب الموت ولا يخشى الفوت اما عدد هذه الجيوش الجرارة والجحافل الكثيفة فتبلغ نحو الاربعة ملايين مقاتل في الساحتين الشرقية والغربية واما المتطوعون فيزيد عددهم على المليون والامة الالمانية مستعدة لأن

تجند من ابنائها البواسل اربعة ملايين اخرى . وجلالة القيصر وانجاله وعموم ملوك المانيا وكافة القواد القدماء الخبيرين بامور الحرب يجوبون ساحات الوغى ويخوضون المعامع وكل لا يهمه الا مراقبة جيشه واحراز النصر والظفر على اعدائه

العدل — تفضلوا بالافصاح عن شعور المانيا بازاء الاسلام

الأمير — ان العنصر الالماني متشرب، تماما حب الاسلام وهو يتمنى النصر للامة الاسلامية من قلبه حتى ان شعور الشعب الالماني حيال الاسلام وصل لدرجة عظيمة اصبح معها الالماني يتألم لالم المسلم ويفرح لفرحه وانني اقص عليك حادثة شاهدتها مع الممنونية والاعجاب وهي ان الشعب الالماني عندما بلغه تحطيم الاسطولين الانكليزي والفرنسوي امام الدردنيل وانتهاء المعركة بفوز الحامية العثمانية حمل الرايات والاعلام وطاف الشوارع فرحاً مسروراً وكانوا في ذلك اليوم في برلين يهتفون بالدعاء لتركيا ويسلمون علي بايديهم و يرفعون القبعات ويظهرون كل انواع الابتهاج والحبور قالت العدل : ثم دار الحديث معه في اصل المزروعات هناك وغير ذلك من المسائل الحيوية فاجابنا عليها ولكن لما طالت بنا الجلسة رأينا ان نقف عند هذا الحد واستأذنا من سموه مؤجلين اللقاء الى فرصة اخرى اذا انقضى الحال وسنحت الفرصة ونشرت جريدة العثمانيشر لويد التي تصدر بالاستانة في عددها الصادر ٩ نيسان ١٩١٥

مقالا بعنوان عائلة الامير عبدالقادر نقتطف منه مايلي :

ان شقيق عبدالمالك زعيم الثورة الاسلامية في مراكش المسمى الامير علي بن الامير عبدالقادر الذي حارب الفرنسو بين امداً طويلاً قد جاء من برلين الى الاستانة والأمير علي كما يعلم الكثيرون هو الرئيس الثاني لمجلس النواب في تركيا والمسلم الوطني الشديد العصبية وقد زرناه في فندق بيرا بالاس فسألناه بعض الاسئلة المتعلقة بمهمته في برلين ثم سألناه عن الاحوال في سوريا وعن شدة حماسة الاهلين للجهاد الديني المقدس فقال :

ان اعلان الجهاد الديني قد ايقظ في سوريا شعوراً دينياً لا يوصف ففي كل الامكنة اقيمت المظاهرات الوطنية اما انا فقد كنت في الجامع الاموي الشريف حينما صدرت فتوى الجهاد وكان في المسجد اذ ذاك ٣٠٠٠٠ مسلم مؤمن يصلون فلما بلغتهم الفتوى بالجهاد وقرأت عليهم سالت عبراتهم في محاجرهم واصبح اهالي دمشق مستعدين لخوض غمار الحرب لاول بادرة تدعوهم اليها واظهروا طاعتهم وانقيادهم لأوامر الحكومة بنوع من الفرح والابتهاج اما القبائل فهي متفقة تمام الاتفاق مع الحكومة والبدو يظهرون حماستهم للدخول في هذه الجزرة الهائلة رغم تنافرهم وتحاسدهم ولقد دعوت الى منزلي في دمشق زعماء الدروز ورؤسائهم الكبار وبينهم يحيى بك الاطرش فسرت بهؤلاء الى خلوصي بك والي

الولاية فصرحوا له انهم مستعدون لاراقة دمائهم في سبيل صون المملكة واعزاز رايتها ويمكن القول ان في طاقة هؤلاء الرؤساء والشيوخ والزعماء ان يبروا بوعودهم . اما نحن فقد سعينا السعي الحثيث في جمع كلمة القبائل وحملناها على الانضمام بصورة قطعية وهذه القبائل على استعداد تام للجهاد ويتولى رئاستها والداي محمد سعيد وعبدالقادر اه

وبيان الامير مطول نشرنا منه هذا القسم لاشتماله على مايهم المسلمين الوقوف عليه . ونشرت جريدة تركيا في عددها الصادر في ١٧ آذار ١٩١٨ مقالاً جاء فيه مايأتي :

برح الامير علي باشا نائب دمشق والرئيس الثاني لمجلس الامة العثماني يوم السبت الماضي العصمة الالمانية عائداً الى الاستانة وقد اشارت البرقيات اليوم الى مروره بفينا يصحبه خليل بك ناظر الخارجية وقراؤنا لايجهلون ان الامير علي هو ابن الامير عبد القادر الذي تولى بنفسه امداً طويلاً ادارة الحركات الحربية ضد اغارة الفرنسويين على افريقيا والامير علي قد عرض خدماته على الدولة مثل كامل باشا ابن الشيخ شامل الذى حارب ردحاً طويلاً في سبيل استقلال قفقاسيا . ان كامل باشا اليوم يدافع على الحدود الروسية بخيالته المتطوعة وفرسانه المجاهدين اما الامير علي فقد اقام عدة اشهر في المانيا كان في خلالها قد تمكن من احكام عرى المودة بينه وبين الاسرى المسلمين وقد استطاع ايضاً ان يفهم المسلمين

الذين يحاربون في صفوف الفرنسويين حقيقة حالهم واوضح لهم بمنشور عربي رمت به الطيارات الالمانية فوق معسكراتهم انهم مخطئون بانضمامهم والتحاقهم بالفرنسويين ، ان المقاومة العنيفة والجهاد العظيم الذي كان شعاراً للامير عبدالقادر وثبوته امام اعدائه في افريقيا قـد حمل الدول المتحالفة على ايراث الامير علي كل ثقة وللامير المشار اليه اخ يتم في انحي مراكش نفس الغاية التي فشل ابوه باكمالها

ولقد كنا ذكرنا ان الامير علي قد زار الساحة الشرقية وانه قوبل فيها بالارتياح والابتهاج ولكنه لم يقم طويلاً في هذه الساحة فتركها الى الساحة الغربية حيث اقام مدة غير يسيرة ساعياً وراء انجاز مشروع اثارة الجزائريين الذين يقاتلون في الصفوف المعادية ولا ريب ان عمله هذا من اوثق الادلة الناطقة بصدق المحالفة المعقودة بين الاسلام والمانيا

وكتبت جريدة طنين في عددها الصادر في ١٢ كانون ثاني ١٩١٥ مقالاً عن حركة الامير عبدالملك في مراكش وعن صراحة موقف الفرنسويين ثم تطرقت الى امتداح المبادئ التي درج عليها ابناء عبدالقادر واطرأت بصورة خاصة الامير علي وحمدت جميل مساعيه في المانيا وخدماته العديدة التي قام بها لتأييد فكرة الجامعة الاسلامية والرابطة المحمدية ومما ذكرته ان الاتراك لاينسون هذه المكارم العلوية ولا الخصال الهاشمية وانهم يقدرونها حق قدرها ويتزلونها منزلتها من التبجيل

والتكريم وكتبت جريدة تصوير افكار بهذه المناسبة مقالاً لا يقل بخطورته عن مقال رصيفتها طنين ومما ذكرته ان سمو الامير هو مجاهد بن مجاهد ووالد مجاهد وشقيق مجاهد وانه موضع آمال المسلمين وكعبتهم التي ينظرون اليها في ايام مصائبهم نظر الرجاء

هذه هي خلاصة اقوال الصحف التركية والاجنبية بمناسبة مسعى الامير في المانيا اتينا على نشرها تذكرة لقوم يعقلون

ذكر ما ورد على سموه

من البرقيات بمناسبة رجوعه من برلين

القصر السلطاني الاشرف ٥ شباط ٣٣٠ الى جانب الامير علي باشا الحسني الجزائري العلي

ان مساعيكم الجليلة في مسألة الجهاد المقدس وتحريضكم اسرى المسلمين على وجوب التمسك بولاء الخلافة الكبرى والامامة العظمى قد نظرت اليها الذات الشاهانية المقدسة وكانت باعثاً الى جذل امير المؤمنين وسبب ارتياحه الى خدماتكم الدينية فابلغكم سلامه الاطهر وتحيته الذكية وارتياحه الى هذه المساعي وتلك الخدمات العظيمة الوطنية والامر لوليه

رأس اطباء الحضرة السلطانية

امير اللواء ..

من نظارة الداخلية

٣٠ كانون ثاني ١٣٣٠

حضرة صاحب السمو المحترم

طالعت كتابكم المؤرخ في ٢ كانون ثاني سنة ٩١٥ بكمال السرور والامتنان فكل مابذلتموه انتم وانجالكم الكرام من الخدمات الباهرة العائدة الى نفع الوطن والبلاد موجبة لتقدير الامة والدولة فنمحضكم الشكر ونزف اليكم في هذه المناسبة ارق شعورنا

ناظر الداخلية

طلعت

من نظارة الحربية في ١٢ نيسان سنة ١٣٣٠

الى جانب سمو الامير السامي

ان اشعاركم البرقي المرسل الينا والمتضمن تهنئتكم لنا باحراز رتبة ياور جلالة السلطان الخاص واحراز رتبة قيادة الجيوش العامة كانت سبباً قوياً للسرور والغبطة وبهذه المناسبة لا اتأخر عن ابلاغ جنابكم العالي تهاني بما قمتم به من مسعى الجهاد المقدس انتم وانجالكم

القائد العام لسائر الجيوش

العثمانية وناظر الحربية

انور

خوارق الاعمال

عرب الصفا — عرب الجا

ما برح الرجل النابغ من قديم الازل يلبس في الناس ازياء شتى واشكالا مستغربة وما برحت الدنيا تحار في كنهه لغرابة منظره فلا تدري ماذا تصنع به ازاء اعماله الكثيرة التي تختلف صورها وتتباين رسومها وتتنكر اشكالها ، ولقد علمنا ان الاقدمين كانوا يرون الرجل النابغ معجزة من المعجزات لا يقدمون عليه مخلوقا مهما عظم قدره ، وكبر شأنه وامره ، اما نحن فنرى انه روح العالم في اي صورة برز واي زي لبس وما يقوله حتم عَلَى العالم تعلمه واعتقاده والسير عَلَى موجبه . رأى القارئ في فصول هذا الكتاب من مختلفات المشاهد ، ومتنوعات المناظر ، التي تكللت اعمـال صاحب الترجمة قدس الله سره ما اوقعهم في حيرة وما جعلهم يعتقدون كل الاعتقاد ان الامـير نور الله مرقده من طينة الحق وان حياته قطعة من فؤاد الطبيعة . نعم ان في هذه الروح الطاهرة سراً مباركا الهيا اعترف الناس به ام لم يعترفوا . وهذا السر سراج يستضاء به وقد تطور فاصبح انسانا يقطر البشر و ينصحهم و يرشد الخلق و يهديهم الى الجنوح عن طريقهم المظلم ومسلكهم المبهم . او ما بدت لنا نفحة من اعماله عابقة بنشر طيب من الجلال الالهي والرونق القدسي؟ . او ما رأيناه

ساعيا في كل ظروفه واحواله مخففا من الم الجرحى في الحرب ، منشطا العزائم الفاترة ، داعيا الى الحق في كل حركاته ؟ او يسعنا ان نجحد كل هذه الفضائل المائجة بالنور بعد ان لمسناها بالايدي و بعد ان فتحنا لها صدورنا الظلمة وقلوبنا الحالكة ؟ وكيف نجحدوفي جحود الفضيلة جنوح عن حب الله وتقديسه و نزوع الى مكابدة تعب الضمير اوجاعه فنصبح كاننا نعاني من ايامنا سلاسل واغلالا ونحمل من فوادح الدهر هضابا وجبالا فاذا كان جحود الحقيقة ونبوذ الفضيلة يتعبنا الى هذا الحد فما علينا الا ان نطأطئ الرأس امام هذه الحجارة الصامتة التي يثوي فيها ذلك الروح العظيم . الا انه مشهد محزن ولكنه يعلمنا الحقائق و يدعونا الى حب الفضيلة وعدم نسيان الاعمال الجليلة . لو توخينا احصاء الاعمال المبرورة التي قام بها صاحب الترجمة رحمه الله لماقدرنا على ذلك لاحتياج هذا العمل الى اوقات طويلة والى جد ونشاط وانما اكتفينا بذكر الخلاصة منها ففي هذه السيرة الملخصة يطلع الانسان على ما لم يمكنه الاطلاع عليه في غيرها من السير الموضوعة عن حياة كبار العصر المتأخر ، اتينا في ما سلف من الفصول على الوقائع الروائع وفي هذا نأتي على خلاصة حادثين عظيمين لا يبرح بذكرهما الكثيرون من اهالي هذه البقعة الطاهرة سوريا العظيمة الحادثة الاولى هي اغارة عرب الصفا على القرى المتاخمة لحوران بعد يدهم الاوفر وتسلطهم على اموالهم ومزروعاتهم وكرومهم

واستيلاؤهم على عشرين الفا من الابقار والاغنام وفتكهم ببعض الفتك بالنفوس البريئة التي لم تحتقب وزرا ولم تقترف شرا او نكرا .

هذا الحادث الغريب الرغم اثار حفائظ الاهالي واهاجهم هياجاً عظيما فاصبحوا غير امنين على ارواحهم واموالهم وعائلاتهم فشكوا حالهم الى حضرة والي دمشق في ذلك العهد ناظم باشا فتأثر لتأثرهم واساءه ما اساءهم . ولقد كانت الشوائع العديدة التي ترددت بين جموع الاهـالي في ايالة دمشق واطرافها قد اثبتت ان لجماعـة الدروز في حوران يداً في حركة عرب الصفا وان هـؤلاء كانوا مدفوعين من قبلهم وانهم مانهبوا ما نهبوه وما سلبوا ما سلبوه الا بعد ان اثارت حماستهم تحريضات اولئك فهذا الامر كان باعثا قويا على سخط عطوفة الوالي وقلقه واصبح لايدري مايصنع بازاء هذا الاعتداء الجائر ايستعمل القوة والقوة لاتردع شعباً جموحاً كهذا بل انها من المقدمات التي تزيد طغيانه ؟ وماذا يصنع اذا لم تنجح القوة في تأديب هؤلاء ؟ وبعد ان طال امد استرساله في التفكر عاد الى التمسك بفكره السلمي واحب ملافاة الشرور بالطرق المسالمة حباً لاراقة الدماء واستشار ورأى ان حسن العواقب انما هو وليد التبصر بها فطلب اليه صاحب هذه الترجمة وعهده فيه انه الرجل الذي لايتردد عن خدمة دولته في كل الظروف وفي سائر الاحوال وبسط اليه كل مـا وقع وحدث وابان له حراجة الموقف فيما اذا اتسع نطاق الضر واستشرى هول ذلك الشر وبعد

المساجلة والمداولة والمحاورة والمناظرة اناط الوالي ناظم باشا بسمو الامير امر الذهاب الى حوران لحمل الزعماء على الانقياد الى رغائب الحكومة ودعوتهم الى رد المنهوب والمسلوب ولم يكن الوالي يشك قط بنجاحه وفلاحه بعد ان شهد غرر اعماله السابقة وتأثيرها في نفوس القوم وقد كان يعتقد تمام الاعتقاد ان عائلة الامير عبد القادر هي المؤثر الاكبر في حياة الدروز وانه لا يمكن لغير افراد هذه السلالة الطاهرة الاستحواذ على شعور هذه القبائل المعطش الى الفوضى والقلق ولما صحت عزيمة سمو الامير على الذهاب الى حوران ودعه الوالي وداعا حافلا وصحبه بمنشور ينشر في الدروز ولكي لا يفوت القراء ماجاء في منشور ناظم باشا بصفته اثراً تاريخياً احببنا نشره باصله وفصله :

لجناب فخر اقرانهم عمدة جبل حوران وعموم المشايخ المعتبرين الروحانيين والجسمانيين دام حفظهم .

لا ننكر ان الاحسانات العميمة التي شملتكم بها العواطف السنية الشاهانية كانت جديرة بان تقابل بالشكران والامتنان وقد كان الامل معقوداً عليكم ان تكونوا ممن يقدر هذه النعم ويحلها من التبجيل والاحترام محلها الارفع ولكنكم لم تفعلوا شيئاً من هذا بل رأيناكم متهاملين متقاعدين عن مكافأة حسن الصنيع ومترددين عن تأدية الفروض المتحتمة عليكم عموما لتكونوا موضع سرور الخليفة الاعظم وحيث ان التخلف عن هذه الفروض

قد ظهر منكم فقد ارسلنا لكم هذا البلاغ مذكرين عمومكم بهذا الواجب
الذي لا مفر لكم منه واهم المطالب التي نطلبها هي الرضوخ والانقياد لاوامر
الحكومة السنية واتباع الطرق الفعلية لا القولية والارتياح الى كل عمل
وواجب وبما ان عربان الصفا قد زادت تعدياتهم بقطع الطرقات ونهب
اموال الرعايا والتجار وابناء السبيل فقد تحتم علينا ملافاة شرورهم ولقد فهم
ان هؤلاء لم يندفعوا الى التمادي بالشر والاعتداء الا بتحريضات الكثيرين
منكم ووعدكم اياهم بالنصرة والمساعدة والحماية وهو الامر الذي لم اكن
اتوقعه وهو حادث سيء يعود عليكم وبال امره ويجر عليكم المصائب والمتاعب
التي ستذكرونها فيما بعد اذ تكونون باعمالكم هذه تبرهنون على عدم استحقاقكم
لنعم الخليفة امير المؤمنين وانتم تعلمون ان عليكم من نعمه واحسانه ما اثقل
عواتقكم ولم يكن يخطر ببالنا قط الا ان تكونوا طوع اوامرنا حتى يتسع
نطاق خيركم وطالما عهدنا اليكم ملافاة امر هذه الشرور من
عرب الصفا وحملها على الطاعة والخضوع فما فزنا بطائل ولم نر غير وعودكم
الكاذبة واباطيلكم المعروفة وعليه فانني الآن اكرر الطلب وادعوكم الى
جمع كلمتكم على الاخلاص للدولة حتى لا تكون لكم بعد ذلك حجة وقد
ارسلنا اليكم المخلص لدولته وامته سمو الامير علي باشا الجزائري لتكونوا معه
يداً واحدة باسترجاع الاسلاب والمنهوبات من الاغنام والابقار واعادة
هذه بعددها الحق المذكور على القائمة التي يحملها سمو الامير وبلغنا

مموه عن المهمة التي تتعلق بما سلب وما نهب وتكونون بذلك قد برهنتم على اخلاصكم بتمام الصدق للدولة العلية ولا تحملونا على القيام بعكس العمل فاننا لانقبل لكم عذرا في تخلف واذا ترددتم في اعادة المواشي المستولى عليها فاننا نستعمل القوة ونلقي المسؤولية عليكم .

في ١٢ ذي الحجة سنة ١٣١٨ دمشق في ١٩ مارت سنة ٣١٧

والي ولاية سوريا
ناظم

بن حسن تحسين

ولقد دارت بين الامير والوالي حين وصول الاول الى حوران برقيات عديدة انحصر موضوعها في وصف مساعي ساكن الجنان في سبيل جمع كلمة الدروز وحملهم على اعادة ما نهب من الاغنام والابقار والاموال وكانت برقيات الوالي العديدة كلها مجمعة على امتداح خطته وسلوكه في سبيل اقناع الدروز بضرورة الانقياد لارادة الدولة والاذعان لاوامرها وهي خدمة تقدر نظراً لاتساع الخرق وفداحة الامر وخطورة الموقف الذي وقفته الحكومة بازاء ذلك الحادث العجيب . وقصارى ما توصل اليه الامير انه جمع اليه رؤساء الدروز وشيوخهم وزعمائهم وبلغهم امر الحكومة وتهديدها ثم اخلص لهم النصح وطلب مساعدته في استرداد الاغنام والمواشي ولقد انصاع الدروز اليه وانما تخللت هذه المساعي بعض حوادث مكدرة اضطر الجنود الى المداخلة في حلها وهكذا انتهت حادثة

عربان الصفا بان حاز كل على حقه واسترد جميع ما نهب بفضل حكمة ودراية الامير رحمه الله تعالى ولولا ضيق المقام لنشرنا تلك البرقيات المطولة التي ارسلها الوالي ناظم باشا ٠

اما الحادث الثاني فخلاصته ان الحكومة لما رأت استفحال الشرور في حوران وما تاخم من الاقطاع ولا رباض اظهرت رغبتها في ان تدخل الى هذه المقاطعة بعض الاصلاحات تعود بالمنافع الكثيرة على الولايات والاقضية وتتعلق الاصلاحات المذكورة بتأسيس ادارات منظمة في جبل الدروز وانشاء قائمقاميات وحكومات تابعة للولاية اسوة بالولايات الباقية وقد كانت الحكومة ترى في تحقيق هذا العمل فائدة عظيمة تبعد عنها العناء والاضطرابات لان تأسيس هذه الحكومات يفضي الى تنظيم امور الجبل الداخلية ويشكل شرطة منظمة تقوم بصيانة الامن والسهر على الراحة والحقوق ومتى تأمنت الراحة وصين الحق سهل على الحكومة اذ ذاك كما تعتقد اقامة المدارس ونقل الشعب من البداوة الى الحضر وحينئذ ينقطع الشعب وينصرف عن الدماء والشقاء ٠

على ان هذا المشروع لم يتناسب مع اذواق البدو الفطرية ولم يتفق مع عادات الدروز لان ترك البداوة في نظر اهل البادية مفادها التخلي عن عيشهم الحر ومقدمة ادخال انظمة ثابتة يعدونها فوضى ولذلك

قاوموا هذه الفكرة واظهروا استعدادهم لمحاربتها لانها كما يتوهمون قاضية
على آمالهم وحريتهم واخلاقهم وعاداتهم ولما رأت الحكومة انها امام معضلة
ثانية لا مفر لها من ولوج اخطارها فكرت بان تلافي كل امر بالطرق
السلمية فارسلت الامير رحمه الله تعالى الى الجبل مبشراً بهذا الاصلاح
العمراني العظيم والحقيقة ان مهمة الامير في هذه المرة صعبة جداً ومحفوفة
بالاخطار وتحتاج الى زمن طويل حتى تتكلل بالفوز ولقد كان قدس الله
سره يعلم خطورة هذه المسألة واكتنافها بالحروجة وكان يعلم ما سيعترضه
من المصاعب والعراقيل وانما لم يتردد واظهر كل رغبة في اتمام هذه القضية
كانما هو يجد لذة كبرى في عناء الاعمال . كان يعلم ان تبديل اوضاع شعب
من الشعوب دفعة واحدة امر صعب وانه يحتاج الى زمن طويل لنضج
فيه العقول والافهام ومع ذلك فانه احب ان ينتهي من هذا المشروع في
اقصر مدة فرحل الى حوران وهو على ثقة من ان مهمته في هذه المرة
غيرها في المرات الاولى وانه يجمل به ان يقوم بتمثيل دور هام صعب
التمثيل .

ماذا سيقول لهذا الشعب البدوي النفور ؟ ايقول له تعال يامن تعيش لوحدك ، السماء
غطاؤك والارض رداؤك الى تبديل ما انت عليه من العيش الذي تخاله عيشا
سعيدا هنيئا . اليس من الصعب دفعة واحدة ان يفهم هذا البدوي
ضرورة الانتقال من حياته الى غيرها يراها ثقيلة الحمل تسلبه حرية التنقل

وحرية العمل وتدعوه الى الخوف دائماً من هذا السيف المسلول الذي نسميه النظام . ذلك حقيقي وانما مقتضيات العصر الحاضر الذي قضت عَلَى بداوة الشعوب تدعو الى هذا الاصلاح قبل ان تصبح البداوة عالة على الحضارة وقبل ان يقتل التهذيب وتمحى فكرة العلم الصحيح من الرؤوس لأن البداوة مخربة للحضارة وقاضية على التمدين ولذلك كان عمل الدولة مع صعوبته لاول عهد البدو به من الاعمال الصالحة واذا كان الامير يعتقد بضرورة هذا العمل وصلاحه لم يظهر ترددا فسار الى حوران للمناداة بين الرحل من سكان البادية والصحراء بهذا المسعى الجميل ولقد ارسل اليه ناظم باشا والي الولاية اذ ذاك برقية يقول فيها :

يجب ان تكون التشكيلات الجديدة شاملة لاطراف الولايه منذ ٢٣ مارت سنة ٣١٣ لان مقصد الحكومة من ذلك هو اعمار المملكة وانتشالها من هوة الخراب فالمرجو بذل كل ما في وسعكم وطاقتكم لاخلاص النصح للذين يقاومون هذا المشروع وان تظهروا من المساعدة للدولة ما اعتدتم عليه

في ٢٣ مارت سنة ٣١٣ — الوالي

ناظم

وبعث الامير الى مشايخ الدروز ورؤسائهم بالاجتماع لديه ولما اجتمعوا بلغهم الأمر وابان لهم ضرورة الاصلاح والنفع الذي يتأتى منه

لبلادهم وانهم يتساوون باهالي المدن و يصبحون اهلا لتولي رئاسة الامور وزعامة الشؤون في البلاد وفهمهم ان سهولهم وكرومهم وحقولهم وزروعهم يتسرب اليها النمو والازدهار و يكثر عددهم و بما توسسه لهم الحكومة من المدارس يصبحون في اسعاد وراحة فوعدوه خيرا ثم تفرقوا وهم مرتاحون الى فكرته هذه وذهبوا لنشر هذا المبدأ في قبائلهم و بعد ايام ارسل الزعيم الدرزي الكبير يحيى بك الاطرش برقية الى الامير هذا هو نصها :

تبلغت امركم السامي وقد انتشر في القبائل والبطون وقوبل بالارتياح نهار الثلاثاء نجتمع لاظهار صداقتنا للدولة وسيصير تحت رعايتكم اركاز القائمقامين والحكام الجدد في مراكزهم

٢٣ نيسان سنة ٣١٤ يحيى الاطرش

والحقيقة ان الحكومة كانت اعدت القائمقامين الذين يتولون ادارة الاقطاع المعدة لهم فقاومها الدروز وانما انتهت المسألة بالموافقة وحصل تأسيس القائمقاميات في الجبل

وهكذا انتهت هذه المشكلة الكبيرة بفضل مساعي الامير . وقد انتدبته الحكومة لاخماد حركة الفتنة التي ظهرت في عرب اللجا فاخمدها واعاد للاهالي ما سلب منهم قوة واقتدارا و بعمله هذا بل باعماله العديدة قد طوق الامة بقلائد احسانه ، واغدق عليها وابل امتنانه ، فحق عليها ان تجعله في مقدمة الذين يجدر بها تكريمهم من بنيها العاملين

اخلاقه وفضائله

وشمائله

اخلاقه كان رحمه الله تعالى واسكنه فسيح جنانه على جانب عظيم من الاخلاق الحسنة ، كريم الضريبة حلو الغرائز ، والطبائع والسلائق واسع الفناء سمح المقادة لين العطفة

بره بقومه وكان له رحمه الله ولع بقومه من اهل المغرب لجعل لكل من هذه الطوائف رزقا يكفه و يكفيه وقوتا يحجره و يغنيه وقد كان يركن الى المزكي الأمين وينبو عن المتهم الظنين ويعول على الثقاة والاخصاء الكفاة المعروفين بالظرف المنزهين عن النطف والجشع وكان حيال الجزائر بين يظهر بمظهر المشفق الرحيم فيجري بهم مجرى ولده ويقيمهم مقام سلالته في البر بهم والاصلاح لشؤونهم والاشراف على دينهم وتلقينهم ما لا يسع المسلم جهله من الفرائض المفترحة والسنن المؤكدة

صلاته وكان يحافظ عَلَى الصلاة و يدخل فيها في حقائق الاوقات قائما عَلَى حدودها متبعا لرسومها جامعا فيها بين فنه ولفظه متوقيا لمطامح سهوه ولحظه منقطعا اليها عن كل قاطع لها مشغولاً بها عن كل شاغل عنها .

ادبه ومن مزاياه الفاضلة انه كان يتأدب بادب الله في التواضع

والاخبات والسكينة والوفاء وصدق الهمة اذا نطق وغض الطرف اذا رمق وكظم الغيظ اذا احفظ وحفظ اللسان اذا اغضب وكف اليدين عن المآثم وصون النفس عن المحارم ويعلم انه مسؤول عما كسب واكتسب ومجزي عما تزمل واحتقب .

تقواه — ومن فضائله انه يستكثر من افعال الخير لنفعه ومساعي الرشد لتنفذه ويأتمر بالصالحات الباقيات قبل ان يأمر بها ويزدجر عن السيئات المهلكات قبل ان يزجر عنها . يأتم في امره بالقرآن ويستضيء بما فيه من التبيان ولا يورد ولا يصدر الا به ولا يقضي ولا يبرم الا عنه فانه الطريق المهيع والحكم المقنع والحجة الواضحة والحكمة اللائحة .

حزمه — اما حزمه في الامور فقد كان مثلا شرودا في الناس وقد اصبح طريقا متبعا ومهيعا متوقعا يستبين الناس ببيانه اذا التفت المعضلات ويستضيئون بمصابيحه اذا استعصت المشكلات فانه عروة الاسلام الوثقى وحجته الوسطى ودليله المقنع وبرهانه الاسطع

كرمه ونداه — وكرمه ونداه مشهوران في الاحياء والارجاء وهو كما قال شاعر العرب التهامي

فتى يقع المدح من دونه ... وان قيل جاوز حد الكذب
ويقصر عنه رداء الثناء ... ولو يرتديه سواه انسحب
معين الندي ماء معروفه ... يجم اذا ماء عرف نضب

صريح المقال صريح الفعال　　صريح النوال صريح النسب
صفات يدور عليها المديح　　مدار الكواكب حول القطب
فتى يفعل المكرمات الجسام　　ويستر هن كستر الريب
توسط مجد بني المغربي　　كما وسط القلب بين الحجب
هم اورثوا الفضل ابنائهم　　وغابوا وفضلهم لم يغب
كذا الشمس تغشى البلاد الضياء　　فان غربت اودعته الشهب
ملوا بالنوال اكف الرجال　　وبالمأثرات بطون الكتب

صلابته وعزمه　وصلابته يدركها الكثيرون وعزمه تشهد له المواقف الجسام التي صارع اهوالها وعانى شدائدها وهو كما قال التهامي

اذا واجه الشمس رد الشعاع　　وان واجه الريح سد المهب
يبين له القلب عما اجن　　ويسعده الدهر فيما احب
اشد مضاء من المرهفات　　اذا حلها اجل مقترب

نسبه الشريف　وليس من يجهل شرف محتده ، ولا طيب اعراقه ، ولا ذاكي ارومته ، ولا سمو نسبه وحسبه فهو ابن الملك الناصر عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن احمد المختار بن عبد القادر بن احمد بن محمد بن عبد القوي بن علي بن احمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن احمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن احمد بن محمد بن ادريس الاصغر مؤسس الدولة المراكشية

بن ادريس الاكبر سيد الملوك ابن عبد الله المحاض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وامه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم فالقاري يرى انه هاشمي وانه من القوم الكرام الذين وصفهم التهامي بقوله

اذا طاردوا خاطروا بالرماح ... وان نازلوا خاطروا بالقضب

ببيض ترقرق ماء الفرنـد ... فيهن بين سوافي الشطب

ولون الاسنة مما خضبن ... كلون الدخان عليه اللهب

هذه هي اخلاقه وشمائله وصفاته وعاداته ونسبه بسطناها لتكون نورا وهدى لقوم غربت عنهم الانوار فهم في ظلام ممترون

صفاته الجسمية تملي الناظر مهابة لما اوتي في جسمه من كمال الاعضاء وحسن تناسبها ولياقة ترتيبها ، عظيم الهامة ضخم المنكبين طويل القامة من غير افراط فصح ان يقال في وصفه رحمه الله وساطة في العلم والجسم حتى ان بعض الناس يضربون المثل بحسن هيئته و بهجة منظره وعظمة صورته واعتدال بنيته و يتفاخرون برسمه و يتنافسون بماله من بديع الشكل ولطافته مع ضخامته وفخامته وكان رحمه الله اسود الشعر معتدل اللون متوسط بين البياض الزائد والسمرة الشديدة والحاصل ان جسمه على غاية من الكمال والاعتدال بحيث لو رآه من لا يعرفه اصلا لشهد له بانه من اعاظم الرجال واكابرهم و يرى عليه لوائح الوقار والاجلال

ولوامع الهيبة لا سيما اذا رآه على صهوة الجواد ومتقلدا صارمه و بعض اسلحته ومن يشهده على هذه الصورة يحق له ان يتمثل بقول الشاعر العربي

وانت من القوم الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وفاته رضي الله عنه في

الاستانة العلية

توفي صاحب الترجمة قدس الله سره في الاستانة العلية عقيب مرض لم يقو جسمه الشريف على احتماله فتناقلت اصداء نعيه ضفاف مرمره الزاهرة، وشواطي البوسفور الساحرة، وشعاب الخليج الناضرة واصاب الوادي المخضل تصويح وذبول نكس ازهاره واذوى رياحينه ونسر ينه وروع القلوب المطمئنة واراق الدموع من المحاجر و بكاه الندى والعرف والشرف والمجد ونعته المنابر والمحابر وكانت وفاته رضي الله عنه في اليوم الثاني من رجب عام ١٣٣٦ ولما تبلغ امير المؤمنين نعيه واطلع على نبأ موته تأثر جد التأثير فارسل احسان بك احد رجال المابين الى عائلة بطل الدنيا والدين ليحسن لها العزاء باسم سلطان العثمانيين ثم صدرت الارادة السنية بان تدفن تلك الجثة الطاهرة

والرفات العظيمة المقدسة في مرقد خاص وان يغطى النعش الكريم بالسترة النبوية ولقد قامت استانبول على رحبها لهذا الموت الفاجع الاليم وهرع علماؤها وكبراؤها، وامراؤها واشرافها يشيعون الفقيد الكريم الى مرقده الاخير ويحنون التعزية لبطل افريقيا الشمالية بلا نزاع المجاهد الغيور، صاحب السمو الامير المنصور محمد سعيد كبير الجمال طيب الذكر وحفيد السلطان عبد القادر ولقد دفن عليه الرحمة باحتفال مهيب ساد فيه الصمت والجلال فشيع نعشه الاطهر العلماء ورجال القصر السلطاني وعدد جم من الجند. وبعد مواراة جسمانه التراب ذهب نجله الامير المنصور محمد سعيد الى القصر السلطاني يصحبه عمه الامير عبد الله باشا وشكرا جلالة السلطان باسم العائلة القادرية على تعزيتها بموت هذا العميد الكريم والزعيم المعظم

لو شاءت هذه العائلة

لنضحت الارض دما

رأى القراء ان بحثنا التاريخي عويص قصي الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه، ويقع وراء جهد الاوهام منتهاه، ومع كل ما بذل من التعب والوصب في جمعه وتأليفه فانا لم ندرك المبتغى، ولم نحرز قصداً نتوخى، فتركنا الافاضة في ابحاثه الى زمن تنفرج فيه برحاء الخطوب،

وتتلاشى في نجره غياهب الكروب ، انما اصبح من اقصى الواجب علينا ان نحارب في ختام هـذا السفر السعيد اكاذيب المفسدين واباطيل الكائدين وترهات المنافقين الذين جاسوا خلال الديار ونشروا اكاذيبهم وزرعوا المفاسد و بذروا بذور الشقاق حتى يصبح جو هذه العائلة المباركة جوا مكفهرا مملوءا بالغياهب والاعصار وحتى لاتعود مياهها صافية رقراقة الينبوع يستقي منها العطاش المللكي ، الا ان للباطل جولة ، وللكذب صولة ، ولكن جولة الحق اقوى وصولة الصدق اطهر وانقى ، وهل ينشأ عن الباطل الا استثارة الكوامن ، واهاجة الدفائن ، وايقاظ الشر واذكاء نائم الفتنة ، ؟

ان بطل هذا التاريخ لم يكن في خدماته العديدة التي قام بها يخدم ملة مقصودة ، اوشعبا معينا ، او طائفة من الطوائف او حزبا من الاحزاب بل كان في كل ماقام به من السعي لايتوخى غير خدمة الاسلام وحفظ حقوق العرب من الانثلام ومع طهارة غرضه ونقاوة مقصده وشرف مراميه ونبل عواطفه فانه لم يكن بعيدا عن كيد الكائدين الذين اغاظهم انه ينمو و يشرق في افق الحياة كالفجر الصافي فيحرق قلوبهم و يقطع نياطها تقطيعا انما قواذف ذممهم وقواذع دسائسهم عادت بشرها عليهم ولم يبق هنالك خاش عرف كرم طباع الامير وخلوص مقاصده الا وردت سهامه الى نحره واصبح اسم الامير صحيح الاديم موفور

الجانب و باء عباد الاباطيل وعشاق الانصاب و التماثيل بالخزي والفشل لان مبادئ الامير رحمه الله كانت حقا والحق لا يموت وما كانت مبادؤهم الا متكاثفات اضاليل ، وسخافات واباطيل ، قد نبتت في اديم حياتهم فالتفت اعباصها ، واستاء شبث ادغالها وخيمت على قلوبهم غواشي قبابها ودوجي ظلالها

لقد ابى الله ان تغدو مآثر العائلة القادرية دمنا عافيات ، وطلولاً دارسات ورسوما داثرات ، ومعاهد خربات ، وابي الا ان تكون افاعيل الخصماء صحفا بالية تطلع عليها شمس اليوم فتذويها و يعصف حولها صوت العاصفة فيمزقها شر ممزق ، ومع ان هؤلاء المفسدين قد ساروا في مبادئهم على غير هدى ، وخبطوا في غياهب الضلال والعماية وعرفوا سوء العاقبة وظلام النتيجة فانهم ماتوانوا ابدا في السعي والضرر فذهب بعضهم الى تخريب قبر مولانا ساكن الجنان الملك الناصر عبد القادر الحسني الجزائري المدفون الى جانب ملك اولياء الله السيد محي الدين بن العربي رضي الله عنهما ولقد حاولوا ان يطفئوا نور الله بعملهم فابى الله الا ان يتم نوره وظلت قدسية مولانا الملك الناصر ترفرف في كل بقعة من بقاع بلاد العرب رغما عن انهيار تلك الاحجار وتداعي تلك الاثار و والله لقد اصاب الارض الخضراء روعة من ذلك واستفحل امر هذه الروعة وتفاقم شأنها واعتاص سرها واستشرى خطبها حتى اصابت ملتف

النبات ومعشوشب الروض وحتى تسربت الى الانهار الجاريات والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، واصبحت بلاد العرب بسوطها وحالقها تتساءل عن النباء العظيم وما فيها للغضب الا كل عصافة هوجاء، تحدو من سحب حماسها كل دجنة وطفاء .

لقد كان مولانا الناصر رضي الله عنه في نظر المجتمع المتمدين الراقي ماسة تلتهب بلألأ ابهر مما رآه اهل العصور المتقدمة وكان يشرق في نواحي كل نفس حية يظلها اديم اوروبا لانه رونق السر الالهي القديم ونور الحق واليقين ولقد طالما سمعنا من كتاب الغرب مثل سفري وبالمار وارفن واشنطن وموريس اتالار وغيرهم من كتاب الطبقة الاولى في هذا الجيل انهم ولو نصبوا للامير فوق نواقيسهم تمثالا وزينوا برسمه جدران الكنائس والبيع وخطبوا باسمه لما كانوا في اداء واجبه الا مقصرين فانه الينبوع الصافي الذي يستقي منه العطاش .

ولو لم يسرع في التعجيل باعادة ذلك الطلل الدارس الى حال يليق بما كنه البطل لتحرج الامر ولكان الخطب على الاسلام غير يسير فان العائلة العلوية التي هي وريثة مفاخر صاحب اللواء والسرير مولانا السيد رضي الله عنه والتي لا يهمها في الكون غير صيانة الحق واعزاز الصدق ، والدفاع عن شرف الاباء والجدود كان في وسعها ان تمتطي غارب خيولها وتسرح في اكناف الصحراء منادية بالثار وغسل العار

ولكن ضنها بدماء المسلمين ان تراق وحرصها على منافع عرش الاسلام من البواعث التي اهابت بها الى الرجوع عن ورد المورد الاكدر واختراق السبيل الاغبر ، فاصدقت العفو واحسنت المغفرة عند المقدرة وظهرت في نفسي الاميرين العظيمين سعيد وعبد القادر طائفة من المصابيح والشموع تلالات في كل ضاحية من ضواحي دمشق الغناء واشرقت في رحاب البادية القحلاء ، وان في الاميرين مجد هذه الامة وسعودها ، وان في روحيهما رونق شبابها ، وجمال ماضيها ، وصفاء ايامها البالية ، وملاحة لياليها الخالية فسلام على الزعيم الاكبر الامير السعيد ، وسلام على اخيه شهاب الله اللامع ونوره الساطع

الزعيم الاكبر الامير سعيد

ان ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم اولياء مخلصون واتقياء مجدون ، وان قرنهم خير القرون ، والتوسل بهم والرجوع اليهم في كل معضلة امر مطلوب وردت به الآثار النبوية ، والسنة المحمدية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم توسلوا بي وباهل بيتي الى الله تعالى وقال عليه السلام لايرد متوسل بنا .

بلى وان بيت الرسول صلى الله عليه وسلم لايبرح مرجع المسلمين في كل معضلة ،

وموئلهم من كل مشكلة ومهديهم عند الخطوب الفوادح ، وملجأهم في الكروب الجوارح ، به يتوسلون الى الله من الشقاء والبرحاء ومنه يرجون النماء في الانتهاء

وهذا البيت الشريف الذي هو بيت الامارة في مكة في مكان واحد من الرعاية والسؤدد لايبرح رفيع العماد بلجأ اليه السائل و يجتلى من نور زعيمه الاكبر محمد سعيد مايبدد ظلمات الاسى والقنوط ، والامير حفظه الله اصدق العمل فنهج منهج جده الملك المنصور صاحب اللواء الموشى والعرش الذهبي مولانا ادريس مؤسس الدولة المراكشية ولا ينسى اهل سوريا خاصتهم وعامتهم مآثر سمو الامير الذي وقف مناضلا في سبيل الحق فهو الذي فتح ردهات قصره الفخم لكل زائر من اهل العلم والادب وهو الذي لايبرح يستأنس بذوي الفضل والنبل والارشاد حتى اصدقت له العامة الحب وتعلقت به الخاصة ايما تعلق وانطبعت القلوب على حبه وتشربت الافهام وده وناجته السرائر والضمائر

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه وهو الجد الاكبر لسمو مولانا السعيد ان المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الاخرة وقد ادرك سمو الامير معنى هذه الكلمات المرشدة فاصبحت كل اعماله الصالحة حرث الاخرة وذخيرة لها وعصاما لنفسه وحفاظا .

ليس الامير الا كتلة من الحق فاح عبيرها في نواحي الكون فعطرها

واشرق ضوءها في ضواحيه فمحا ليلها الساجي الصامت الاربد . ما ذا نقول بشأن الرجل العظيم وانه لسر مكتوم يحار في كنهه الوهم و يعجز عن وصفه اللسان، انصوره على مثله الحقيقي والعجز متسرب الينا ام نلهج باسمه وهذه الشفاه ترتعش كلما حاولت ان تلهج باسمه ؟ الا حسبنا اننا نحب البطل ونكرمه في اية صورة ظهر بها وحسبنا اننا نعظمه ونبجله — قال كارليل اكبر كتاب البريطان : سيكون حبنا للبطل مادام الليل والنهار لأنه مامنا الا من يعشق الابطال — يعشقهم و يجلهم و ينحني اكباراً لهم وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل الا يحس المرء ان في اجلاله لمن هو ارفع منه رفعة لنفسه ؟ وهل جال في صدر المرء احساس هو اشرف من ذاك واقدس وانه ليسرني و يشفي نفسي انه ليس في طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجمود ان تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية اجلال الابطال والعظماء .

وقال كارليل :

اني لأرى في غريزة اجلال الابطال الصخرة الراسخة التي تلتقي الامم الساقطة في مهاويها فتمنعها من الضياع في اعماق الخراب فاذا انتهت الامة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تحيي نفسها للنهوض ثم تشرع ترتقي وتصعد حتى تعود الى احسن مما كانت عليه وهكذا يظهر لي ان اجلال الانسان للبطل هي الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور، هي النقطة

الوحيدة الثابتة في التاريخ الحديث والا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمق قراره ولا تعرف سعته شاطئاً ·

ليس في ما ذكر ما لا ينطبق على طبائع الأمير سعيد حرسه الله فقد رأيناه في اشق ايام هذه الامة رسما مقدسا ينظر اليه ورأينا الناس يتطلعون فيه مليا و يرون فيه تلك الصخرة العظيمة الشاهقة التي في الغالب تقي الشعوب من فداحة التدهور فسلام على الرجل النابغ سليل الملك الناصر عبد القادر سلام على البطل الذي يظهر في مختلف الاشكال والذي نرى فيه كل مزايا الرجل الفرد المقدس — سلام عليه الى اليوم الموعود

الزعيم الامير عبد القادر

ان الامير علي لم تخلق له ذكرى وسيظل اسمه ما بيننا جديداً مشرقاً مادام انجاله الكرام يحذون حذوه في كل عمل من اعمالهم ·

رأى الناس في الامير سعيد رجلا شجاعا كريما سياسيا على دهاء عظيم وذكاء جم مستبحر ورأوا فيه زعيما كثير الاشفاق على امته والبر بها و يرون في اخيه عبد القادر انسانا لو كان مولده في العصور المتقدمة لتخيلوه من غير طينة البشر ·

شاب في مقتبل العمر عاش ويعيش بين القبائل الرحل الضاربة في هذه البطحاء الجرداء يماشي هذه القبائل الجريحة النافرة باخلاقها واذواقها

ومشاعرها ومنازعها واطوارها و يحادث كل قبيلة بلسانها ولهجتها و يقدم على تحمل حر الهاجرة والقيظ طروبا مسرورا جذلا فرحا كأنما هو لا يشعر بلذة مثل هذه اللذة التي تنشأ فيه من عيش البداوة والقفر .

أما القبائل التي لا تبرح علىَ نصف جاهلية يثيرها المثار الى الالتحاف بالغبار والانضواء تحت علم الاخطار فانها كثيرة الولع به والتعلق بحبه وان له فيها لتأثيرا عظيما وحسبك ان اسمه يتردد في هـذه البطحاء الطويلة المنفسحة الرحاب من كهف الى آخر ومن جبل الى مثله ومن غور الى صنوه ومن نجد الى شبيهه .

فيه يصدق قول كارليل فانه رجل يحبه الناس علىَ اختلاف المنازع والاطوار والعادات وانك لو اتيته في داره في دمشق لوجدته رجل الحضارة الفذ قد نفض عن عاتقه غبار البداوة وخشونتها والتحف برداء الحضارة قال احد علماء العصر : كل افعال المرء لو تفقهون دليل عليه حتى يمكنك ان تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه في الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه فان جبنه او اقدامه ليبدو لك في خلال لفظه وما كلمة الرجل او رأيه باقل نميما عن شجاعته او خوره، من ضربته او طعنته وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة في صور شتى .

فكل ما ذكره هذا العالم ينطبق تمام الانطباق علىَ الزعيم الخطير الامير عبد القادر فان احاديثه ورنة صوته دليل شجاعته و برهان حسي يشير الى

ثبوته واقدامه على الخطوب الجوارح والكروب الفوادح بها اوعرت السبيل واوعثت وقامت فيها القحم والعقبات . او ما رأيناه كالسيل العرم ينحدر من اعالي الجبال الى صفائح الوادي بقلبه الجريء وصبره العجيب ؟ او ما رأيناه نورا لينا غضا يشرق في نواحي الصحراء الممتدة من ابواب سور يا الى اعلى قمة في شبه جزيرة العرب . فتي في مقتبل شبيبته ترك القصر وضجيجه والبيت وعجيجه ونزل في هذه البطحاء الجرداء في زمن فتوقه ثائره وخطوبه طائره وحروبه دائره وصروفه جائره ونفوسه حائره وما ذلك الا ليصون حرمة هذا البيت ، بيت النبوة المثلى والمعجزة الجلى ، فكانت اعماله اوثق دليل على ان اهل البيت اعزهم الله لم يصفروا من المعجزات ولم ينفضوا من الآيات وانهم في امة العرب مصابيح متلألأة ومسارج مونقة .

فيا ابن الامجاد القديمة الدارسة يا سليل الملوك الاوائل ووريث الحضارة الاندلسية والمدنية المراكشية انما انت سيف من الله مسلول وندى رحمة مطلول وظل من العطف ظليل .



اعتذار

وقعت في الكتاب بعض اغلاط مطبعية نطلب الى القراء الاغضاء عنها وبهذه المناسبة ايضا نطلب الى الشعراء والادباء الذين رثوا السيد رضى الله عنه بقصائدهم حسن الاغتفار لعدم نشرنا زبدة قرائحهم ونتيجة خواطرهم علىَ اننا نعدهم بنشر كل ما نظموه وما كتبوه في كتاب يطبع علىَ حدة في مستقبل قريب والسلام

